تحت شمس الأجداد

شادي فراج

مقدمة الرواية

تحت شمس الأجداد، تبدأ الحكاية بنسج تاريخ أبطال عاشوا حياة مليئة بالقيم والتضحيات التي لا تنسى. الجد يونس كان أول من رفع راية العائلة عالية في سماء القرية، وبينما رسخ مسيرته، رسم خطى الأسلاف على دروب التضحية والمحبة. وكان سامي، الأب الذي يروي هذه القصص كل مساء لأبنائه، يحمل الموروثات بصدق ويعشق نقل حكمة أجداده إليهم. كان دائمًا يحن إلى ذكريات والده، الجد نعمان، ولكل لحظة مشعة بتفاصيل الإيثار والمحبة التي زرعها. وكان حديثه ليس مجرد ذكرى عابرة، بل بلسمًا يرطب قلوبهم، ويشحن طاقتهم للإيمان بتاريخ عائلي لا يُشبع.

بينما كان سمير، الشاب المتعطش لاكتشاف أسرار الأزمان، دائمًا أول من يطرح الأسئلة، يحاول اكتشاف المزيد عن الأجداد الذين لم يعرف عنهم الكثير، لكن قلبه كان مليئًا بمشاعر عظيمة تجاههم. أما دنيا، الابنة التي كانت تعشق قصص البطولة، فقد تخيلت نفسها جزءًا من الإيقاع التاريخي للعائلة، وحرصت على غرس قيم الأجداد في قلبها منذ الصغر. كانت شام تأثرت بشكل كبير بحكايات الجدة وردة والجدة سلمى، وسعت لحماية تلك الذكريات، معبرة عن عشقها لحكايات الأمومة التي شكلت كيان العائلة. أما صفاء، تلك الفتاة التي تتمتع بصمت هادئ، فقد كانت تُكن في قلبها حبًا غير محدود، وحملت أمانة العائلة في كل ما تفعله، مما جعلها الرابط بين جميع الأفراد.

في كل مساء، كان سامي يأخذ أطفاله في رحلة عبر الزمن، يحدثهم عن الجدة وردة والجدة سلمى، ويذكر لهم مواقف الجد يونس التي أظهرت محبته وأصالته، ويقف عند تجارب الجد نعمان التي أثرت في القرية ومن حولها. هذه القصص كانت تحمل دروسًا غنية في التضحية، الإيثار، والحب العائلي، وكانت تجد في قلوب الأطفال مكانًا عميقًا يعزز الإيمان بقيم الأجداد.

وكان الأبناء يحرصون دائمًا على استكشاف المزيد عن هذه الشخصيات العظيمة. كانت قصص العائلة تلهب فيهم الحماسة للاستمرار في المسيرة، والفخر بتاريخهم العظيم. شجعتهم كلمات

والدهم على استكشاف الماضي وحمل إرث الأجداد بكل فخر. وفي كل مساء، كانوا يلتفون حوله بعيون ملؤها الحماس، ليواصل الحديث عن شمس الأجداد التي لا تغيب.

وفي نهاية كل قصة، كان الجميع في البيت يشعرون بالعزم والشجاعة، حيث قرروا معًا أن يكونوا امتدادًا حيًا لذلك الماضي الرائع، حاملين المسؤولية بكل أمانة، ليظل شعاع شمس الأجداد يضيء لهم الطريق في كل خطوة يخطونها.

الفصل الأول

"في ضوء الذكريات"

في لحظةٍ من الليل الهادئ، قُطع سكون الطريق بنغمات حديثٍ بسيط. كانت السيارة تمضي ببطء عبر طرقات ملتوية، والأضواء الخافتة للمنازل الريفية تلقي ظلالاً طويلة على المزارع المحيطة. جلس سامي خلف عجلة القيادة، مركزًا على الطريق، بينما ابنه سمير ينهمر بكلمات متحمسة عن حفل الزفاف الذي حضراه للتو. بين الضحكات والتعليقات على المواقف الطريفة التي شهدوها في الحفل، ساد صمت مفاجئ قطعه سؤال مباشر من سمير: "أبي، لماذا كان الجميع يتحدث عن جدي كأنه بطل؟ ماذا فعل؟"

كان للسؤال تأثير خاص على سامي. التفت إلى ابنه بابتسامة خفيفة تجمع بين الفخر والذكريات الدفينة. بقي صامتًا للحظة، وكأن ذهنه غاص في دهاليز الماضي، ثم أجاب: "سأخبرك، يا بني، عن أجدادك العظام. لكن ليس هنا... دعنا نصل إلى البيت أولاً." كانت كلماته غامضة، لكنها مشحونة بوعد يحمل بين طياته رحلة عميقة إلى أيام الجد نعمان، الذي زرع بذور هذا الإرث العظيم.

عندما دخلا المنزل، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، إلا أن شعورًا غريبًا بالحيوية والفضول استحوذ على سمير. جلسا معًا في غرفة المعيشة التي بدت وكأنها شاهد على لحظات لا تُنسى من حياة العائلة. الصور القديمة التي تزين الجدران تحكي قصصًا صامتة عن أفراد العائلة في مراحل مختلفة. استلقى سمير على الأريكة منتظرًا بلهفة، بينما حضر شادي كوبًا من الشاي الساخن وجلس بقربه، مستعدًا لفتح صندوق الذكريات.

نظر سامي إلى ابنه بنظرة عميقة، وكأن الوقت توقف للحظة. قال بصوت هادئ: "ما رأيته اليوم في الحفل هو انعكاس بسيط لحكايات طويلة ومليئة بالدروس. عائلتنا تحمل جذورًا عريقة في التضحية والشجاعة. أجدادك، وخاصة الجد نعمان، هم من صنعوا ذلك التاريخ العظيم."

سمير، الذي زاد فضوله مع كل كلمة، استفسر قائلاً: "لكن ماذا فعل جدي يا أبي؟ لماذا يذكره الجميع وكأنه أسطورة؟"

ابتسم سامي وأخذ رشفة من الشاي قبل أن يجيب: "الجد نعمان لم يكن بطلًا بالمفهوم التقليدي، لكنه كان قائدًا بقيمه وشجاعته. كان رجلاً يعرف كيف يحول المحن إلى دروس، وكيف يبني بإرادته أسسًا ثابتة للعائلة. إن قوته لم تكمن فقط في أفعاله، بل في حكمته التي أرشدت الأجيال من بعده. الأبطال الحقيقيون يا بني، هم من يواجهون الحياة بقلوب قوية وعقول حكيمة."

ثم أضاف: "هل تذكر كيف تحدث الناس عن قوته وحكمته اليوم؟ تلك القصص التي سمعتها ليست مجرد حكايات قديمة. إنها جزء من إرثك، جزء من الجذور التي تنتمي إليها. اليوم سآخذك معي في رحلة عبر الزمن، إلى الأيام التي كان فيها الجد نعمان يعيش تحت شمس القرية، ويزرع أصول القيم التي نحملها الآن. قصته ليست مجرد ذكريات، إنها شمس دافئة تضيء طريقنا حتى اليوم."

بينما كان سامي يواصل سرد قصة الأجداد، دخلت أخوات سمير: دنيا، شام، وصفاء. تجمعوا جميعًا حوله في جلسة عائلية تحمل أجواءً من الترقب. دنيا قالت بنبرة فضولية: "سمعنا جزءًا من حديثكم في الطريق، وتبدو القصة مثيرة جدًا. هل يمكنك يا أبي أن تخبرنا أكثر عن جدي نعمان؟"

أجاب سامي بابتسامة وهو يوجه حديثه إليهم جميعًا: "لقد كان رجلًا بعيدًا عن التصنع أو الشهرة، لكنه قدم الكثير لعائلته ومجتمعه. لقد كانت تضحياته سمة مميزة من حياته، وعمل بجد لبناء مستقبله ومستقبلنا. لكنه كان أيضًا مربّيًا للأجيال، عُرف بأثره في مجال التعليم. كان يعلّم أبناء قريتنا القيم والمعرفة، وعلمهم أن الحياة لا تكون إلا بتعلم الحكمة والعمل بجد."

قالت شام، وهي تلمس قلادة قديمة ترتديها: "كيف كان يتعامل مع الصعوبات؟ وهل كانت حياتنا مشابهة لما عاشه؟"

أجاب سامي بهدوء: "كان جدي نعمان يواجه العديد من المصاعب، لكن ثقته بالله وبمستقبل أبنائه كانت دائمًا محركًا له. كانت حياتنا بالتأكيد مليئة بالتحديات، ولكننا تعلمنا أن نكون أقوياء بفضل تلك القيم التي غرست فينا. لقد علمنا ألا نستسلم مهما كانت الظروف صعبة."

وأضافت صفاء بجدية: "لكن ماذا عن الجدة سلمى؟ كانت بطلتنا في كثير من الأوقات. كيف كانت تدعم جدي في تلك اللحظات الصعبة؟"

ابتسم سامي وهو يتذكر الجدة، وقال: "الجدة سلمى كانت بحد ذاتها رمزًا للتضحية. فهي لم تكن مجرد أم وزوجة، بل كانت جنديًا في معركة الحياة. كانت تحارب في صمت، لكن قوتها لا تقتصر على التضحيات العائلية، بل على دورها الكبير في تعليمنا كيف نحب بعضنا البعض وندعم بعضنا في أصعب الأوقات."

وتنفس الجميع الصعداء وهم يشعرون بالارتباط العميق بماضيهم، ومهما كانت الأيام، فإرث الأجداد سيبقى دائمًا حافزًا لهم في بناء الحياة التي حلموا بها.

الفصل الثاني

"صدى الانتظار"

في مساء اليوم التالي، وقبل أن يعود الوالد سامي إلى المنزل، تجمع الأبناء – سمير، دنيا، شام، وصفاء – في غرفة الضيافة بجانب الموقد. الجدران كانت تزخر بصور أجدادهم، وكان الشوق يملأ القلوب لسماع قصة جديدة. الكل كانوا ينتظرون أن يبدأ سامي حديثه عن تاريخهم العريق، وتاريخ الجد يونس، الذي حمل أسمه عبق الحكايات.

وبينما جلسوا في ترقب، جاء سامي بابتسامة لطيفة على وجهه وقال:

"اليوم، سوف أبدأ معكم من البداية، عن جدكم يونس، والد جدكم نعمان، وسأروي لكم عن تلك الأيام القديمة، حيث الزمان كانت المسافة بين الأجيال ممتدة، ولكنها قريبة في نفس الوقت."

بدأ سامي قصته بكلمات دافئة تغلف الحكاية أبعاد التاريخ وتفاصيل الإرث الذي تركه الجد يونس في نفوس الأجيال التي تلته:

في قلب قرية نائية، بين الجبال التي تتناثر عليها الرياح القوية، حيث أكواخ الطين كانت ملتجأ للمجاهدين والزارعين، عاش يونس مكتن يوسف. كانت حياته مليئة بالعمل والاجتهاد في الأرض التي اعتنى بها طوال سنوات حياته. عمل يونس في مزرعته التي كان يحبها حبا جميلا، وكان قضيته الكبرى أن ينمّي الأرض ببذلٍ مضاعف. رغم أنه قد عاش ساعاتٍ طويلة بين زرع الأرض وتدوير المحاصيل، كان قلبه يظل يهفو لأمل أكبر من أي محصول ينمو. كان يحلم بالطفل الذي يركض بين أغصان الأشجار ويعبق البيت ضجيجًا. ولكن عارضته شائبة كبيرة: لم يُرزق بطفل بعد مرور خمس سنوات.

ذات يوم، بعد سنوات من العناء والانتظار، قررت زوجته، نسب، التي حملت على عاتقها حملًا ثقيلًا من الحزن، أن تطلب الطلاق من يونس. وقالت في لحظة وداعها: "يونس، لا أستطيع أن أكون السبب في حرمانك من الأمل في وجود من سيرث عنك هذا الحب وهذه الأرض." كان قرارًا صعبًا بالنسبة لها، لكنه كان قرارًا منبعثًا من عمق الحب والخوف على مستقبل زوجها.

"لكن يونس لم يستسلم. بعد غياب طويل، جاء القدر ليمنحه أملًا جديدًا. حيث التقى امرأة أخرى تدعى وردة، التي كانت تختلف تمامًا عن نسب. إيمانها العميق وحبها للحياة أعطى ليونس الضوء الذي احتاجه، وأعادت له الأمل."

واصل سامي سرده، بينما كانت أعين أبنائه تتسع من الفهم والدهشة، فاجتذب سامي الجميع إلى النقاش عندما قال:

"ثم وُلد نعمان، ابن يونس. الطفل الذي طال انتظاره، وكان بالنسبة له أكثر من مجرد طفل. كان حلمًا تحقق."

استمر سامي في القصة التي حملت بين طياتها الكثير من الفخر والحكمة، حتى جاء اللحظة التي جلس فيها الجميع حول الطاولة في مساءٍ متأخر، عاقدين العزم على فهم حكمة الماضي الذي حمل أسرارًا كامنة في أسراب الأجيال.

وعندما انتهى سامي من الحكاية، كانت عيناه مليئتين بالتأمل كما لو أنهما ترتدان إلى الماضي. بدأ سمير، الذي لا يزال يعكس بريق فضوله المتجدد، يتحدث بنبرة تحمل الأسئلة التي لاحت في ذهنه: "لقد فهمت الآن. هذه القصص ليست مجرد ماضٍ وحكايات منقضية. إنها إرث عميق نُحملُه نحن على أكتافنا، وعلينا أن نحترمه ونعي أهميته. تلك التضحيات التي سمعنا عنها... كانت ضرورية لتكوين المستقبل الذي نعيشه الآن."

وبينما كانت الأجواء في المنزل تحيط بها سكينة عميقة تخلو من أي ضجيج، قطع حديث دنيا بقوة مفعمة بالحيرة قائله: "لكن ماذا عن الجدة نسب؟ كيف تحملت كل هذه التضحيات؟ ألم يكن من الصعب عليها اتخاذ تلك القرارات الصعبة؟"

أجابتها شام بنبرة هادئة، تُحاكي الجرح العميق الذي يخبئه الزمن: "كانت امرأة عقلانية، لكنها لم تكن تفكر في الحياة فقط من منظورها الخاص. لم ترغب بأن تكون سعيدة بمفردها، بل أرادت أن تضمن المستقبل لكل من تحب. الجدة نسب أرادت أن يصطحب الحب والفرح في كل خطوة، حتى وإن تحملت الألم بنفسها. كانت تملك الحكمة الكافية لفهم أن الحب الحقيقي يختار التضحيات الكبرى من أجل سعادة الآخر، لا العكس."

بينما كانت كلمات شام تتغلغل في أعماقهم، تحدثت صفاء بنبرة مليئة بالإعجاب، وكأنها قد أدركت خلاص الفكرة تمامًا: "بالنسبة لي، كل شيء يتعلق بالجدة نسب يُختصر في كلمة واحدة: شجاعة. كان قرارها مُرًّا، لكن قوته تكمن في القدرة على مواجهة هذا الألم بروح صافية."

ابتسم سامي بحنان وهو يستمع لهم، وكانت نظراته مليئة بتقدير عميق لتفهم أبنائه. أجاب وهو يمرر يده على وجهه كمن يعود لأعماق الماضي: "تضحيات الجدة نسب لم تكن مجرد أفعال، بل كانت نبراسًا نستلهم منه في حياتنا اليومية. نحن هنا الآن نتبادل هذه الحكايات، وهذه الحكايات ليست مجرد بوح بالعاطفة أو ذكرى تموت بمرور الوقت. نحن نرويها الآن لأننا بحاجة لأن نكون واعين جدًا بأن كل خطوة خضناها، وكل لحظة ألم مررنا بها، هي جزء من هذه المسيرة الطويلة التي صنعت من أجدادنا الطريق الذي سلكناه. الحياة تحتاج إلى تضحيات لكي تبنى وتستمر، وما فعلته الجدة نسب يُعد الأساس الذي ينبغي أن نكون دومًا على وعيٍ بأهميته في حياتنا."

الفصل الثالث:

"بيت الجد يونس والمضافة المفتوحة"

في المساء التالي، بينما كان النسيم البارد يحرك الستائر بلطف المنزل، جلس الأب سامي بصحبة أبنائه. كانوا جميعًا يتجمعون حول الطاولة الكبيرة التي كانت قد امتلأت بالطعام والشراب بعد يوم طويل. كانت الليلة مختلفة، وأجواء هذا المساء تشبعها أصداء القيم العائلية التي تربوا عليها.

بدأ الأب سامي حديثه وهو ينظر إلى أبنائه بعيونٍ ملؤها الحنين: "لقد تربينا في هذا البيت على مبدأ مهم، وهو أن الكرم ليس مجرد عادة، بل هو روح حياة. ولكي نفهم معانيه حقًا، يجب أن نعود إلى أصوله، إلى بيت الجد يونس."

تساءل سمير بنبرة ملؤها الفضول: "أبي، هل كانت الأمور هكذا دائمًا في بيت الجد يونس؟ كيف كان يتعامل مع الزوار؟"

أجاب سامي مبتسمًا: "إن بيت الجد يونس لم يكن مجرد منزل، بل كان مكانًا ينبض بحياة خاصة. كانت المضافة هناك دائمًا مفتوحة لأي شخص يمر من قربها. كانت البيوت من حولنا لا تخلو من مواقف ضيافة مميزة، لكن منزل جدكم يونس كان له طابع فريد."

تابعت دنيا بحماس: "إذن لم يكن الكرم يتوقف فقط عند تقديم الطعام؟"

أجاب الأب بحكمة: "لا، عزيزتي. بيت الجد يونس كان ملاذًا لمن يحتاج إلى المساعدة، وكان دائمًا يوفر الطمأنينة للزوار. كل من يعبر عتبة البيت يشعر أنه في منزله، وكأن روح الكرم تعانقه."

ثم أكمل سامي في حكاية القصة الشهيرة التي تتذكرها العائلة: "كانت المضافة هناك دائمًا مفتوحة. كان من السهل أن تجد الباب مفتوحًا، وتنتشر في الأجواء رائحة القهوة الممزوجة بالهيل والميرمية. لم يكن يهم إن كان الزائر قادمًا ليلاً أو نهارًا؛ بيت الجد يونس كان دوما يرحب بكل الزوار."

قاطعت شام بشيء من الفضول: "لكن ماذا عن الجدة وردة؟ هل كانت تدير كل شيء وحدها عندما غاب الجد؟"

ابتسم سامي وهو يسترجع تلك الذكريات الطيبة: "نعم، كان هناك يوم غاب فيه الجد يونس عن البيت بسبب أعماله خارج القرية. في ذلك اليوم، كان على الجدة وردة أن تستقبل ضيوفاً وصلوا من القرى المجاورة. وهم لم يكونوا زوارًا عاديين، بل كانوا شيوخًا من الجوار جاءوا للاستمتاع بحديث الجد يونس."

قالت صفاء بدهشة: "لكن إذا لم يكن الجد موجودًا، كيف استضافتهم الجدة؟"

أجاب سامي مبتسمًا في تواضع: "الجدة وردة كانت مدرسة في فن الضيافة. هي تعلمت منذ أن كانت صغيرة كيف تهتم بالضيوف. فبينما كانت هي تشرف على الضيافة، أدارت كل شيء بجودة وعناية. الحليب الساخن والحلوى على المائدة، لم يفوتها أي شيء. والأهم أن الجدة وردة نفسها جاءت من عائلة مرموقة معروفة بحسن الاستقبال والكرم. كان بيت والدها نموذجًا للضيافة. منذ صغرها، تربت على تلك القيم، فكانت الزوار يعرفون أنَّ بيتهم، مهما كانت الظروف، سيكون دوماً مرحبًا."

في تلك اللحظة، توقفت دنيا عن حديث والدها وقالت بابتسامة: "لقد كانت الجدة وردة تمامًا مثل الجد. الكرم لم يكن مجرد سمة تميز شخصًا واحدًا، بل كان جزءًا من العائلة بأكملها."

أجاب سامي وهو يشعر بالفرح لحجم الفهم الذي وصلوا إليه: "صحيح. كانت الجدة، رغم غياب الجد، قادرة على أن تترك الزوار يشعرون كما لو أنهم في حضوره، لأنها كانت تحمل نفس الروح.

هذا هو الفارق بين المظاهر الحقيقية وما قد يُفترض. الكرم ليس كلامًا يُقال، بل هو أفعال ثابتة يُترك أثرها في الآخرين."

ثم تابع قائلاً: "لقد أضافت الجدة وردة إلى الإرث العائلي قيمة عظيمة بأفعالها. لم يكن كرمهما هو مجرد مرحلة مؤقتة، بل كان جزءًا من هوية العائلة التي زرعها الجد يونس فيهم، وفي قلب الجدة وردة التي ورثت عن والدها تلك الروح الطيبة."

وأضاف وهو يتابع: "عندما عاد الجد يونس بعد غيابه في ذلك اليوم، كان يعرف تمامًا أن رسالته في الضيافة والكرم كانت قد اكتملت بيد الجدة وردة. وكلما غاب، كان يشعر بأنه لا يوجد شيء ناقص في بيته، لأن الرسالة في الجود والمساندة ليست مرتبطة بالوجود الجسدي، بل بالروح."

توقف الجميع قليلاً للاستمتاع بهذا الحديث العميق، ثم قالت شام بنبرة مفعمة بالإعجاب: "الكرم هو أن تستمر أعمالنا الطيبة، حتى لو كنا غائبين. ليس أن تكون موجودًا فقط، بل أن تترك أثرك."

قال سامي: "بالضبط. ولم تقتصر تلك القيم على الجد والجدة، بل تعمقت في نفوسنا جميعًا. ولكم جميعًا دور مهم في تعزيزها، لا سيما في هذه الأيام التي نعيش فيها. ليس فقط أن نكون هناك لجعل بيتنا مكانًا يستقبل من يطلب المساعدة، بل أن نكون دائمًا حاضرين في أفعالنا."

وأختتم سامي حديثه قائلاً: "أيها الأبناء، احملوا هذه الرسالة في قلوبكم وحافظوا على هذه المضافة مفتوحة في حياتكم، لا لتستقبلوا الزوار فقط، بل لتمنحوا الجميع شعورًا بالأمان والاحتواء، كما كان يفعل أجدادنا."

وفي تلك اللحظة، شعر الجميع بأن الحديث عن بيت الجد يونس لم يكن مجرد ذكرى. بل كان دعوة مستمرة لاستمرار الكرم والعمل الصالح في حياتهم اليومية، ليتوارثوها عبر الأجيال القادمة.

الفصل الرابع

"شجاعة في وجه المصير"

كانت القرية التي عاش فيها الجد يونس تضم طائفتين رئيسيتين: طائفة الموحدين الدروز وطائفة المسيحيين النصارى، وبينما كانت الاختلافات الطائفية موجودة، كان أهل القرية يعيشون معًا في وئام وتناغم، يتقاسمون الحياة بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة. القرية كانت مثل نسيج واحد، حيث تجمعها الأرض والحياة اليومية، وطاولة العشاء المشتركة والابتسامة التي لا تفرق بين الجيران، بل تُوثّق رابطًا غير مرئي بين الجميع.

لكن هذه الوحدة التي كانت نعمة للقرية كانت مهددة عندما أصدر الجنود الإسرائيليون أمرًا يقضي بترحيل طائفة النصارى وكاهنهم (الخوري) من القرية. قوبل الخبر بصمت عميق من جميع أهالي القرية، وبدأ البعض يشك في مصيرهم، في الوقت الذي كان الوضع يدفع أهل القرية إلى الخوف من القادم.

وفي حين كانت العائلات المسيحية تتجهز للرحيل إثر هذا الأمر الجائر، بقيت طائفة الدروز في القرية لا تزال غير متأثرة. لكن الجد يونس، الذي كان دائمًا شعلة من الفطنة والمرونة، لم يمكنه قبول هذا الفصل بين أهل القرية.

علم الجد يونس بخروج الخوري مع أهله في طريقهم نحو الحدود اللبنانية، فانزعج بشدة من هذا القرار، وصرخ قائلاً:

"كيف يمكن لهم أن يتركوا قريتهم؟ كيف نتفرق بهذه السهولة؟ هذه أرضنا، ونحن أولى بها من أي غريب!"

فكر يونس لثواني، ثم قرر أن يذهب على الفور. أخذ فرسه وركب في الليل بلا تردد. وجدته زوجته وردة وهو يهم بالخروج، فقالت له في قلق:

"أين تذهب يا يونس؟!"

أجابها:

"سأذهب لإحضارهم. هذه ليست مجرد قرية، هذه بيتنا، بيت الجميع. لن أترك أحدًا منهم يرحل. سنعود معًا، كما كنا دائمًا."

ركب يونس بسرعة إلى السهول، وتجاوز الطريق الوعر، لم يبالِ بالألم الذي يعصر قلبه ولا بالتعب الذي بدأ ينغرس في عظامه. لم يكن قد عرف إذا كانوا ما زالوا يسيرون أم أن الخوري وأهله قد اجتازوا الحدود. كانت الوحشة تملأ الطريق، لكن إيمانه بأنهم لا بد أن يعودوا معًا كان هو الدافع الوحيد.

وأخيرًا، رأى في الأفق مجموعة من الناس. كانوا يمشون ببطء، وهم يرفعون أياديهم للسماء، والبعض منهم كان قد حمل وجوهًا على محياهم نضب منها الأمل. لكنه عرف، لا شك فيه، أنهم كانوا الخوري وأتباعه. اقترب منهم، حتى نظر الخوري إلى يونس بدهشة وقال:

"ماذا تفعل هنا يا يونس؟ لقد أصدروا أمرًا، وأنت تعرفه، نحن مجبرون على الرحيل!"

أجاب يونس بثقة وهدوء:

"لن أسمح بذلك. لا يمكن أن نترك القرية، ولا يمكنكم أن تذهبوا هكذا. هناك شيء ما يجب أن تفعله العائلات: العودة إلى مكانكم، حيث تنتمون. سأرافقكم جميعًا."

بدأ الخوري يهز رأسه في حيرة، فقال أحد الرجال بجانبه:

"لكن هذا غير ممكن. لديهم القوات، ونحن خائفون."

فقال يونس بكل حزم:

"إذًا ما بقي لنا؟ هل نبقى بعيدين عن أرضنا؟ هذه القرية هي إرثنا جميعًا، ولن نكون جزءًا من الشتات. سيروا ورائي، سنعود جميعًا إلى ديارنا."

وبتلك الكلمات، وأخيرًا شعر الجميع بدفء الأمل يراودهم. بدأ الخوري يقول للآخرين:

"إذا كان يونس هنا، فهذا يعني أن لدينا فرصة للعودة."

تجددت عزيمتهم، وانطلقت المجموعة مرة أخرى في طريق العودة.

عندما وصلوا إلى مدخل القرية، كانوا قد تجاوزوا مخاوفهم واكتشفوا أن الجد يونس كان على حق في سعيه هذا. بدا وكأن القرية نفسها تنتظرهم. عندئذٍ، أتى رجال القرية وأطفالها لتهنئتهم على العودة. كانت تلك لحظة من مشاعر مختلطة، من فرح ورهبة، شعور متناقض بين هدوء الطبيعة ووجع الرحيل الذي كاد أن يكون واقعًا.

قال أحد كبار السن في القرية بحزم:

"هذه الأرض هي وحدنا، ولن نسمح لمن يفرقنا أن يأخذ منا هذا العيش المشترك."

شعر الجميع بالفخر في تلك اللحظة. كان الجد يونس قد عاد مع العائلة كاملة إلى أرضهم، مكتسبًا شجاعة وحكمة تذكرها أجيال قادمة.

هنا انضم لسمير ووالده اخواته دنيا شام وصفاء

عند انتهاء الحديث عن الجد يونس، ساد صمت طويل بين الأب وأبنائه، كان كل واحد منهم غارقًا في أفكار عميقة حول الشجاعة والتضحية التي برهن عليها جدهم.

ثم كسر سمير الصمت، وقال بنبرة مليئة بالإعجاب: "والدي، قصة جدي يونس حقًا تذهلني. كيف استطاع أن يتحمل هذا العبء كله؟ وما الذي دفعه للمجازفة بحياته في تلك اللحظة؟"

ابتسم الأب بلطف وأجاب: "كانت تلك لحظة فارقة، سمير. في الأوقات الحاسمة، يظهر من يمتلك القوة للتضحية من أجل الآخرين. جدي كان يؤمن بأن لا شيء يمكن أن يفرق بين أهل القرية، وأن الأرض، مهما كانت الظروف، تظل هي الرابط الأساسي. كانت شجاعته مصدر إلهام لجميع من حوله."

دنيا التي كانت تجلس بصمت، فكرت لوهلة ثم قالت: "لكن هل فعلاً كان بإمكانه النجاح لو لم يكن يؤمن بقوة الجماعة؟ هذا شيء مهم، ألا ترى؟ كان بإمكانه أن يسير بمفرده، لكنه اختار أن يعود بالجميع معًا."

تقدمت شام التي كانت تستمع بحرص، وأضافت: "بالضبط، دنيا. أعتقد أن أهم جزء في القصة هو الوحدة. جدي يونس لم يعتقد أن نجاحه ممكن ما لم يكن معه الجميع، وهذا يعني أن قوة الفرد تكمن في قوة الجماعة."

نظرت صفاء إلى والدها وقالت برؤية مغايرة: "هل كنت ستفعل ما فعله جدي لو كنت في مكانه؟ أم كنت ستختار البقاء بعيدًا لتجنب المخاطرة؟"

أجاب الأب بعد صمت طويل، وقد جحظت عينيه للتفكير في السؤال: "سؤال صعب، صفاء. الحقيقة أن التجربة الصعبة هي ما تكشف عن قوتنا الحقيقية. كان الجد يونس رجلاً كبيرًا بمعنى الكلمة، قدر على تحمل المسؤولية وواجه ما لا يستطيع أغلبنا تحمله. لم يكن لديه خيار آخر إلا أن يتحرك. ربما لأن أي خيار آخر كان سيكون خيانة لتاريخنا ومبدأنا."

ثم أضاف الأب بابتسامة حانية: "لكن الأهم أن كل واحد منا يحمل في قلبه جزءًا من تلك الشجاعة. قد لا يكون لدينا مواقف مثل مواقفه، لكننا إذا اجتمعنا معًا وتوحدنا، نستطيع أن نواجه أي تحدٍ."

قلب كل منهم نظره في الطريق الطويل الذي سيواصلونه في حياتهم، وكل واحد منهم كان يشعر بشعاع صغير من الشجاعة يخترق قلبه.

قال سمير وهو يتنهد: "صحيح، لو كنت أنا مكان جدي، هل كنت سأقف هكذا؟ ربما."

ردت دنيا بحماس: "إذا وضعنا أنفسنا في مكانه وتوحدنا مثلما فعل، سنكون جميعًا قادرين على التصدي لأي شيء."

ابتسم الأب وقال بابتسامة دافئة: "هكذا تعلمنا يا أولادي، الشجاعة الحقيقية ليست فقط في تصدي الرياح العاتية، ولكن أيضًا في قتالنا الدائم لبقاء الروح التي تجمعنا."

وأضاءت الغرفة بصوت ضحكات الأطفال، شعورًا منهم بالفخر بما زرعه الجد يونس من قيم وسلوكيات فيهم، ليظل خيط الوحدة والترابط متأصلًا في قلب العائلة، جيلاً بعد جيل.

قال سمير: "مذهل! فهمت الآن لماذا تُحتفظ هذه القصص. لأنها تخلّد أبطال مثل جدي يونس، وهم جزء من تاريخنا، ومن هويتنا التي لن تُمحى."

ثم قالت صفاء ببساطة وفضول: "لكن هل كان من الممكن أن يحدث هذا لولا شجاعة جدنا يونس؟"

ابتسم الأب وأجاب بحكمة: "ربما كان الوضع سيتغير، لكن في مثل تلك اللحظات الحاسمة، كان لا بد من وجود شخص يلتزم بشجاعته ويفعل ما يعتقده الصواب. الشجاعة كانت هي التي غيرت مجرى الأمور."

بينما كان الأطفال يستمعون بعناية، بدأ كل واحد منهم يرى الجد يونس بعيون جديدة. القصة التي حُكيت لهم تلك الليلة ستظل عالقة في أذهانهم، عميقة الجذور في ذاكرتهم، وتلك الصورة الخالدة عن الجد يونس ستبقى تسكن مخيلتهم، كل منهم يشعر أنه جزء من التاريخ الذي حمله هذا البطل في قلبه.

الفصل الخامس

"الجدة وردة.. عماد الأسرة"

اليوم يا أبنائي، سأحكي لكم عن جدتكم الكبرى وردة. كان اسمها مرتبطًا دائمًا بقوة العزيمة، الحكمة، والعطاء غير المشروط. عندما أصيب الجد يونس بالعجز، لم تكن الجدة وردة مجرد من تعول أسرتها، بل كانت هي العماد الذي يستندون عليه جميعًا. فقد أخذت زمام الأمور في البيت والحقل، وجعلت العائلة تجد قوت يومها بالرغم من الصعوبات.

كانت تبدأ يومها قبل شروق الشمس، تنفض الغبار عن نفسها وتبدأ بتأدية الصلوات فترتبط دائمًا بالله، وعندما يدخل ضوء الفجر إلى نوافذ المنزل كان البيت يكتسي رائحة الأمل والأصالة. كانت تُعد الطعام بعناية لأطفالها حتى يبدأ كل منهم يومه مليئًا بالحيوية والنشاط. ولكن حتى الصباح لم يكن حريًا بمراوغتها، فسرعان ما كانت تبدأ بتنظيف البيت وترتيب كل شيء به.

كانت تطلب من ابنها البكر نعمان أن يساعدها. "نعمان، أنت ابن كبير، يجب أن تتعاون معي حتى تكون الأسرة على أحسن حال." وها هو نعمان، الذي أصبح اليوم من أكبر المفكرين في العائلة، يترسخ لديه كل درس من أمه. بعد ترتيب البيت، كانت تتوجه مباشرة إلى الحقل حيث كانت النساء يلتقين في طقس يومي لا ينقطع، على الرغم من التعب. كانت وردة تقف تحت أشجار الزيتون كما لو أنها واحدة منها، تقطف الثمر وتنظم العمل بسلاسة لم يكن يستطيعها أحد غيرها. كانت الضحكات تملأ المكان. أغانيها، الصادرة من قلب يملأه الأمل، ترفع روح الجميع. تحارب الشقاء بروحها التي لا تلين.

وعندما بدأ اليوم في الانحسار نحو المساء، تعود الجدة إلى البيت مع باقي النساء ليبدأ فصل جديد من العمل. هناك على زاوية الغرفة، جلست تفرز الزيتون بيديها المجعدتين بفعل العمل الشاق. كانت تبني لكل حبة زيتون قصة: البعض لِصناعة الزيت، وآخر لتخزينه للبيع في السوق. في عينها

كان الأمل يتوقد وتعلم أن هذه الجهود الصغيرة ستكون هي الجسر الذي سيحمل أبنائها نحو المستقبل المشرق.

لم تكن تعتقد أبدًا أن الفقر قد يكون عذرًا للإحباط، بل كانت دائمًا مؤمنة بأن التعليم هو الطريق الأوحد للارتقاء بالإنسان. ومع كل قرش تجنيه من تعبها، كانت تحفظ القليل ليعزز أحلامها. كانت أحلامها صغيرة في ظاهرها لكنها كبيرة في جوهرها. بفضل عزيمتها، بدأ حلمها يتحقق في الواقع؛ ابنتها الكبرى أصبحت معلمة، ونعمان حصل على شهادته الجامعية. وعادت عائلة الجد يونس للتفرغ للعلم والكتابة.

قال الأب وهو يتأمل في ملامح أطفاله: "هل تعلمون كيف أصبحت هذه العائلة على ما هي عليه اليوم؟ هذه الجدة استطاعت أن تزرع فيهم أملًا أكبر من التحديات. كانت تصبر ولا تشتكي، وكل قرش إدّخرته كان من أجل أن يجعل أبناءها يرتقون فوق حاجز الفقر."

قالت شام، وهي تستند إلى يد والدها بعينين تملؤهما الفضول: "كيف تمكَّنت جدتي من تحمُّل كل هذه المسؤولية؟"

ابتسم الأب ابتسامة عميقة وأجاب: "لقد كانت مثل شجرة الزيتون، جذورها متأصلة في الأرض. قاومت جميع الرياح، وأزهرت في الصعوبات. كانت كل خطوة من خطواتها تحمل تطلعًا للغد البعيد، لا تلتفت أبدًا للألم أو العوائق. كانت كل حبة زيتون تزرعها، وكل خطوة تخطوها في الحقل، تساهم في بناء مستقبلكم."

أضاف سمير، وهو يرفع حاجبه بتساؤل: "هل كانت تدخر شيئًا لنفسها؟"

ضحك الأب وأجاب: "لن تصدقوا. لكن جدتكم كانت تعيد لي دائمًا كلمة: 'ما الفائدة من الشجرة إذا لم تُثمر؟' كانت تثمر في أبنائها، تعطي بلا حساب."

ضحكت شام وقالت: "هل كانت حقًا لا تُقهر؟"

أجاب الأب، بنبرة غنية بالفخر: "لم تكن مجرد شخصية قوية، بل كانت رمزًا للصبر، لامرأة تُحوّل الصعوبات إلى نجاح، وحياة مليئة بالحكمة والتعلم. جدتكم كانت تحوّل التحديات إلى دروس في الحياة. كانوا جميعًا يحبونها، وعاشوا لأجل مبدأ عميق واحد: لا شيء مستحيل مع الإيمان والعمل."

ثم التفتت صفاء قائلة: "يجب أن نخبر الجميع عن قصتها. هذه الجدة هي الأسطورة الحقيقية لعائلتنا."

أومأ الأب برأسه قائلاً: "أنت على حق يا صفاء. ليست هذه القصة لنا وحدنا، هي درس لكل من يعتقد أن هناك عقبة لا يمكن اجتيازها. تعلموا من جدتكم أن الحياة ليست فقرًا وإنما فرصة، ليس هناك ما هو مستحيل أمام الجهد والعزم."

وفي تلك اللحظة، تتسرب كلمات الأب إلى قلب كل واحد منهم، وتظل قصتها في الذاكرة، معلمة أن العطاء المستمر ينبع من الثبات والعمل الجاد، تمامًا مثل شجرة الزيتون التي تؤتي ثمارها بعد سنوات من الصبر، مقدمة درسًا خالدًا لا يُنسى.

الفصل السادس

"الجدة وردة: قلب العائلة وروح المناسبات"

في مساء يوم آخر، بينما كانت الأنوار الخافتة تنير أرجاء المنزل، جلس الأب سامي مع أبنائه سمير، دنيا، شام، وصفاء حول الموقد في غرفة المعيشة. كانت النار تتلألأ في المدفأة، وتضفي على الجو دفئًا وحميمية، بينما عمّت أجواء المساء المريحة في المكان، والتفوا حول بعضهم في لحظاتٍ من الصمت، كما لو أنهم يسترجعون أطياف الماضي، تلك التي طالما رسمتها جدتهم وردة في حياتهم. بدأ الأب في حديثه بنبرة يملؤها الشوق والحنين وهو يروي لهم عن الجدة وردة.

قال الأب بحب: "قد يظن البعض أن الحياة في القرية حياة رتيبة وبعيدة عن الحداثة، لكن بالنسبة للجدة وردة، كانت القرية هي مصدر الحياة الحقيقية. على الرغم من أنها جاءت من بلدة بعيدة، حيث الجبال والسهول تمتد بلا حدود، إلا أن الجدة جعلت كل شيء يشرق هنا."

"عندما تزوجت وردة من جدكم يونس وانتقلت للعيش في القرية، كانت بداية مختلفة بالنسبة لها. لم تكن تعلم ماذا ينتظرها، خاصة في المناسبات والاحتفالات، فكان الكل يتوقع منها شيئًا أكثر، وهذه المهمة تحمل كثيرًا من المسؤولية."

قال سمير، وهو يرفع حاجبه: "ماذا كان المختلف في هذه المناسبات يا أبي؟"

ابتسم الأب وقال: "في الأعراس والاحتفالات كانت جدتكم هي الروح الحقيقية للمناسبة. كان الجميع يتوقعون أن تطهو بنفسها، لا أحد يستطيع منافستها. الطعام لم يكن مجرد وجبة، بل كان احتفالا يُعبر عن حب وود. ولأجل ذلك، كانت تشعر بأنها مسؤولة ليس فقط عن الأطباق، ولكن عن إسعاد الجميع من خلال الطعام."

أجاب الأب مستمتعًا بذكرياته، وهو ينظر إلى عيونهم التي تراقب كل كلمة بشغف: "لم يكن العرس في القرية يكتمل دون حضور جدتكم. كانت تهتم بكل طبق، وتضع فيها لمستها الخاصة. المكونات البسيطة تتحول بين يديها إلى طعام رائع يحمل الحب فيها، ليس الطعام فحسب، بل فيه روح جدتكم."

قالت دنيا بدهشة: "هل كان لها وصفات معينة؟"

أجاب الأب، وهو يواصل حديثه بلهجة فيها الكثير من العاطفة: "نعم، كانت تعرف كل شيء عن طعام القرية. كان لديها طرق مبتكرة، وكانت أطباقها ملجأ للجميع في كل مناسبه. كانوا يقولون في القرية: 'أينما كانت وردة، هناك سيظل العرس يكمل وتظل البسمة موجودة.'"

ثم أضاف الأب وهو ينظر إلى أبنائه بحب: "لكن أعظم إنجاز لجدتكم لم يكن فقط في طعامها، بل في قدرتها على تربية أبنائها. كانت تسعى دومًا أن تزرع فينا حب العطاء وأهمية أن تبقى العائلة معًا."

تنهد الأب بحنين ثم قال: "حتى مماتها، كانت تعد الطعام كل آخر أسبوع لتجمع العائلة تحت سقف واحد، لأن العائلة بالنسبة لها كانت أكبر من أي شيء آخر. في كل مرة كنت أراها تجهز الطعام وتعد المائدة، كنت أرى كم كانت محبة للحظات تلك، كيف كانت تسعى أن تعم الفرحة بيننا جميعًا."

ثم نظر إلى سمير ودنيا وشام وصفاء وقال لهم بحب: "أعلم أنكم أيضًا تعيشون هذه الذكرى بداخل قلوبكم، وكلّ واحد منكم يحمل جزءًا من روحها وحبها في طريقه."

تحدثت صفاء بصوت خفيض: "حقًا، كانت جدتي امرأة استثنائية. حتى حين عُادت الأمور صعبة، كانت تبذل المزيد من العطاء."

أجاب الأب مبتسمًا: "نعم يا صفاء، كانت تحمل تلك السمة الأبدية التي تقول إن العطاء ليس له نهاية. كل لحظة قضتها جدتكم كانت درسًا لنا جميعًا في المحبة، الصبر، والإبداع."

نظر الأب إلى أبنائه وأكمل حديثه بعيون يغمرها التقدير: "والأهم من كل شيء، أنها علّمتنا أن ما نغرسه في الآخر هو ما يبقى. أسلوبها في الحياة كان يعلو على المال، وكانت تقدّر روح الأسرة أكثر من أي شيء مادي. ونحن، نسلها، فخورون بما تركته لنا من إرثٍ لا يعوض."

مع تلك الكلمات، عادت الهدوء لتغمر الغرفة، وحل الصمت الذي يمتزج بالشوق والذكريات العميقة التي ظلت محفورة في قلوبهم. كانوا جميعًا يشعرون بعزاء خاص، بإحساس عميق بالحب الذي تركته في حياتهم.

الفصل السابع

"الجدة وردة - الأم الثانية"

في الأمسية التالية، كان الجو مفعمًا بالهدوء والألفة، بينما بدأت عيون سمير وأخواته تلتقي بنظرات الأب الذي كان يختصر لهم حكايات من الماضي برؤية ملؤها الحب والتقدير. كان هذا اليوم يختلف عن الأيام الأخرى، فالحديث الذي يدور عن الجدة وردة اليوم كان يثير في قلوبهم مشاعر معقدة.

قال الأب سامي، وهو ينظر إلى أبنائه بعمق: "هل تعلمون، لقد كانت الجدة وردة أكثر من مجرد جدة لنا. كانت أمًا ثانية لي ولأعمامكم وعمتكم زينب بعد وفاة جدتكم سلمى في وقت مبكر، حيث كنا أطفالًا. وقد فقدناها ونحن في أشد الحاجة إلى حبها ورعايتها."

سمير، الذي ما زال يشعر بمزيج من الحزن والتساؤل: "جدتي سلمى كانت لا تزال شابة جدًا عندما توفيت. كيف استطاعت الجدة وردة التعامل مع هذا الحزن الكبير؟"

أجاب الأب بلطف، وقلبه يعصره الحزن لأجل تلك الذكريات: "بعد رحيل جدتكم، كان الخوف علينا، خصوصًا عمكم براء، الذي كان لا يزال حديث الولادة، فقط أسبوع واحد مضى منذ قدومه إلى هذه الدنيا. لكن جدتكم، وردة، كانت مثل الأم الثانية لنا. لم تتردد لحظة في رعايتنا، وكانت تحمل عن والدنا نعمان هموم الحياة ومشقتها."

تنهدت دنيا، وقالت بصوت شجاع: "هل كانت تقوى على حمل كل هذا العبء بمفردها؟"

ابتسم الأب بحنان: "كانت قوة جدتكم وردة تتعدى ما يتخيله الإنسان. لم تتركنا أبدًا نشعر بالفراغ أو الألم بعد فقدان والدتنا. تحملت المسؤولية بكل عزم، واعتنت بنا كما لو كنا أبناءها. كانت تربي بنا على مبادئ العطف والمحبة."

قالت شام بنبرة حانية: "يبدو لي أن جدتي كانت تجسد التضحية بكل معانيها، فكيف كانت تحمل هذا كله وهي نفسها كانت في وقت محنة وحزن كبير؟"

أجاب الأب بابتسامة من الحنين: "النساء الكبار لا ينظرن إلى أنفسهن في الأوقات العصيبة، كانت تواصل العناية بنا على الرغم من أوجاع قلبها. كل شيء بالنسبة لها كان عن العائلة وتماسكها. "كان وجهها دائمًا يتحول إلى الأم الحانية المطمئنة أمام الصغار، حتى عندما كانت عيونها هي نفسها تفتقر إلى تلك الطمأنينة."

صفاء، التي كانت ترى الخيط المشترك بين الماضي والحاضر، سألت: "إذاً، ماذا تعلمنا منها؟ هل كانت تعتقد أن العائلة هي من يتحمل كل شيء معًا؟"

أجاب الأب بنبرة حكيمة: "نعم، يا صفاء. جدتكم وردة كانت تعتقد أن الأسرة هي الحجر الأساس لكل شيء. من خلالها تعلمنا أن الحب يعتمد على العطاء والرعاية والمشاركة في الأوقات الحلوة والمرّة. كانت تجعل من أي ضيقة تجربة تمر عبر الصبر والمحبة."

"نظر الأب إلى عيون أطفاله وقال: 'عندما كنا أطفالًا في حاجة إليها، لم تتأخر لحظة. كانت تكافح من أجلنا كما لو كنا أبناءها، لا يهم إذا كان الزمن يمضي ببطء، أو إذا كان الحزن يعتصر قلبها. كانت دائمًا سيدة البيت، تملأ قلوبنا بالحنان وتفرح بنا وكأنها قد أنجبتنا بأيدها.'"

"قالت دنيا، وهي تمسح دمعة من عينيها: 'لقد علمتنا الكثير يا أبي، الجدة وردة لم تكن مجرد جدة، بل كانت أمًا ثانية لكم، وكانت دائمًا تبذل كل جهدها من أجلنا. لذلك، لن ننسى أبدًا قدرتها على البقاء قوية، محبة وحنونة.'"

"أجاب الأب وهو يرفع يديه إلى السماء: 'نعم، أحبتنا حتى آخر لحظة. وحتى عندما انتقلت إلى الله، كانت لا تزال تعد الطعام كل أسبوع في بيتها لتجمع العائلة حول مائدتها. وبالرغم من كل الألم الذي عاشته، لم تتوقف عن العطاء في كل لحظة.'"

ثم، ابتسم الأب وهو يضم أبنائه إليه وقال بحب: "أهم شيء علينا أن نتذكره عن الجدة وردة هو أنها كانت تجسد ذلك المبدأ العميق: الحياة لا تتعلق بما تخسره، ولكن بما تقدمه. ولا شيء أهم من العائلة."

الفصل الثامن

"حكاية الألم والأمل"

جلس الأب مع أولاده في المساء، في المكان المعتاد حول موقد النار، مستعدًا لسرد حكاية جديدة عن أجدادهم. نظر إليهم وقال بابتسامة هادئة:

- "هل أنتم مستعدون اليوم لسماع قصة جديدة؟"

قال سمير، وهو يقترب بتلقائية:

- "بالطبع يا أبي! أصبحت القصص التي تحكيها لنا عن أجدادنا ترسخ في ذاكرتي أكثر من أي شيء آخر. فكل يوم أسمع فيه قصة أجدادنا يجعلني أفهم حياتهم وشجاعتهم أكثر!"

ثم ردّت دنيا بحماس:

- "وأنا! إنها تبين لنا كم كانت حياتهم مليئة بالتحديات، ولكن ما يعجبني حقًا هو كيف استطاعوا أن يواجهوا الصعاب بعقلية صافية."

وأضافت شام:

- "أريد أن أعرف أكثر عن جدنا يونس... أنت دائمًا تحكي عن قوته، لكنني أريد سماع أحد دروسه الصعبة. هل لديك شيء لتشاركه معنا عنه اليوم؟"

نظر الأب إليهم بعمق وقال:

- "حسنًا، إذن، هذه المرة سأروي لكم عن قصة حدثت لجدكم يونس، وكيف علمنا درسًا هامًا عن الصبر والتسامح في وقت كانت الحياة تحمل الكثير من الصعوبات. إنها قصة تتعلق بتجربة مؤلمة لعائلة فقدت غالٍ عليهم، لكن القيم التي كانت تجسدها عائلتنا هي ما خففت وقعها."

وسكت الأب للحظة، حيث جعل أولاده يشعرون برهبة القصة القادمة. ثم استكمل بحماس:

- "القصة تروي كيف تأثر والدي نعمان بهذه الحكاية وأيضًا عن تلك اللحظة التي أظهرت فيها الإنسانية في أحلك المواقف."

كان جدكم نعمان يبلغ من العمر ثمانية أعوام فقط عندما انقلب عالمه رأسًا على عقب، في يوم لن يُمحى من ذاكرته أو ذاكرة القرية. كان يومًا خريفيًا هادئًا، تغمره أصوات الرياح الناعمة وهي تداعب أوراق الزيتون، بينما تعلو ضحكات الأطفال بين أزقة القرية الترابية.

بينما كان جدكم نعمان يركض خلف أصدقائه في لعبه، قطعت صرخة عالية الأجواء، كأنها خيط يمزق ستار السكينة. تسارعت دقات قلبه وهو يركض بلا تردد نحو مصدر الصرخة. هناك، على الطريق الترابي المؤدي إلى البيت، وقف المشهد المريع. أنيس، شقيقه الأصغر، مستلقٍ بلا حراك على الأرض. وبجانب جسده الصغير تقف شاحنة مياه ضخمة، وسائقها يخرج مترنحًا بوجه شاحب، وقد أمسك رأسه بيديه المرتجفتين.

حشدٌ بدأ يتجمّع، أصوات تتداخل، وجوه يكسوها الذهول والرعب. ومن بين الحشد، انطلق يونس، والد جدكم نعمان. هرول يونس وسط الناس، وجهه يحمل مزيجًا من الخوف والرعب لم

يُخففه ثبات خطواته. انحنى فوق جسد ابنه بلا كلمة. كان أنيس بلا حراك، ونبض الحياة قد فارقه.

توقع الناس أن ينفجر والد جدكم كبركان، أن يندفع نحو السائق الذي كان يقف هناك يرتجف وكأنه ينتظر حكمًا بالإعدام. لكن جدكم الكبير يونس، ذلك الرجل الذي لطالما عُرف بحكمته وهدوئه، وقف بثبات أمام الجميع.

نظر إلى السائق المرتجف الذي بدأ يتمتم باعتذارات مرتعشة، ثم أمسك جدكم يونس بيد الرجل وقال بصوت منخفض لكنه ثابت:

- "قدر الله نافذ. اذهب إلى بيتك، وسامحك الله."

كانت كلماته صاعقة، أقوى من أي صرخة. وقعها على الحضور جعلهم يغرقون في صمت يشبه صمت الموت. كيف لرجل فقد فلذة كبده أن ينطق بمثل هذا الكلام؟ وكيف يمكنه كبح جماح غضبه الذي اعتقدوا أنه سينفجر كعاصفة؟

انهار السائق باكيًا بين جدنا، والجموع حولهما بدت وكأنها تماثيل جامدة، غير قادرة على استيعاب ما حدث أمامهم.

تلك الليلة كانت طويلة وصامتة، يغلفها حزن ثقيل كالسحب التي لا تمطر. جلس جدكم نعمان بجانب أبيه في فناء المنزل، ينظر إليه بعينين محملتين بالحيرة والألم. سأل بصوت مرتجف:

- "لماذا يا أبي؟ لماذا سامحت السائق؟ أليس هو السبب في موت أنيس؟"

نظر ابوه إلى السماء للحظة قبل أن يُجيب بصوت مليء بالشجن:

- "يا بني، السائق لم يكن يريد إيذاء أخيك. الحياة أحيانًا تأخذ منا أغلى ما نملك لتختبر قلوبنا، وقوتنا الحقيقية ليست في الانتقام، بل في التسامح. لقد فقدنا أنيس، لكن لا يجب أن نفقد إنسانيتنا. الألم يا بني سيزول، لكن الحقد يترك جرحًا أعمق."

سكنت كلمات الجد يونس في قلب جدكم نعمان كوشم لا يمحى، غرسة صغيرة ستكبر مع مرور السنين لتصبح حكمة ترشده في كل لحظات حياته.

بعد الحادثة، انتشر الحديث عن موقف الجد يونس في كل زاوية من القرية. بات الجميع يتحدثون عنه باعتباره مثالًا للتسامح والحكمة في أصعب المواقف. لم يعد أنيس مجرد ذكرى، بل أصبح رمزًا لمعاني أكبر، معاني تُلهم الجميع.

أما جدكم نعمان، فقد حمل تلك اللحظة في قلبه أينما ذهب. كانت بداية تكوين شاعر يبحث عن معاني الإنسانية في كل سطر يكتبه. أدرك أن الكلمات يمكنها أن تكون وسيلة للتغيير، وجسرًا لبناء السلام. كلما نظر إلى أشجار التوت التي شهدت أفراحه وأحزانه، كان يتذكر أخاه، ويتذكر حكمة أبيه، ويكتب قصائد تلامس القلوب وتُعيد الأمل.

قال الأب وهو ينهي القصة، وعيناه تلمعان بحزن دفين:

- "جدكم نعمان لم يكن فقط شاعرًا يا أبنائي، بل كان شاهدًا على حكمة عظيمة، درسًا علّمه إياه والده يونس. الزاوية ليست مجرد قرية يا أبنائي، إنها قلب نابض بحكايات الألم والصبر، والجمال الذي يزهر من بين الشوك."

بعد أن انتهى الأب من رواية القصة، خيم صمت عميق على المكان. أطفأ الجميع أنفاسهم في رهبة، وكأنهم يخشون كسر سحر اللحظة. كان الضوء الخافت للمصباح يتراقص على وجوههم، يعكس مزيجًا من التأمل والانبهار.

قطع سمير، الابن الأكبر، الصمت أخيرًا، وعيناه تحدقان في والده، قائلاً:

- "أبي، ما زلت لا أفهم... كيف استطاع جدنا يونس أن يتحمل ذلك؟ أن يرى فلذة كبده تحت عجلات الشاحنة ويقرر أن يسامح السائق؟ هذا يبدو أشبه بمعجزة."

ابتسم الأب ابتسامة خفيفة، ورفع نظره نحو ابنه قائلاً:

- "أتعلم، يا سمير، الحكمة ليست مجرد كلمات تقولها في لحظة هادئة. إنها فعل تقوم به عندما تكون النار مشتعلة في داخلك. في تلك اللحظات الحرجة، يظهر معدن الإنسان الحقيقي. جدكم يونس لم يكن يملك رفاهية الانتصار لغضبه، لأنه كان يعلم أن العنف لن يعيد أنيس."

نظرت دنيا إلى والدها وقد انعقدت حاجباها بشيء من الفضول، وقالت بصوت عاطفي:

- "لكن يا أبي، كيف يمكن للإنسان أن يجد القوة ليغفر؟ ألا يشعر بالظلم؟"

هز الأب رأسه قائلاً:

- "بالطبع يشعر. لكنه كان يدرك أن الانتقام سيزيد الألم ولن يداويه. لهذا قرر أن يغفر ويترك كل شيء بين يدي الله. الحكمة ليست ضعفًا، بل هي أعظم أنواع القوة."

أخفضت شام رأسها قليلاً وهي تقول بنبرة فخر:

- "أنا أشعر أني محظوظة لأنني من هذه العائلة. هذه القيم تجعلني أشعر أننا لسنا فقط أفرادًا في عالم واسع، بل نحن ورثة لرسالة مهمة."

جلس الأب ينظر إلى أبنائه، كانت ملامحهم تحمل علامات التفكير العميق. نهض سمير فجأة ورفع رأسه نحو السماء، متمتمًا بصوت خافت:

- "هؤلاء الذين تنحت النجوم أسماءهم هناك... هم أبطال بحق. أبطال لا يحملون سلاحًا، بل يحملون قيمًا."

ضحك الأب بهدوء وقال:

- "سمير يا بني، ربما يومًا ما سيحكي أبناؤك عنك كأحد هؤلاء. المهم أن تعرف أن القيم التي تحملها هي رسالتك للعالم."

اندفعت دنيا نحو أختها قائلة بحماسة:

- "ربما... في يوم من الأيام، ستكون هناك قصة تروى عن أحدنا نحن. أبي، قل لنا، هل تعتقد أن لدينا القدرة على صنع شيء كهذا؟"

أجاب الأب وهو يقف ليطفئ المصباح:

- "أحبائي، أنتم تمتلكون شيئًا أثمن من القوة، وهو الإيمان بقدرتكم على صنع الفرق. حين تأتي اللحظة المناسبة، ستعرفون ما يجب عليكم فعله. فقط تذكروا دائمًا: الحكمة والصبر هما أعظم أسلحة الإنسان."

ساد سكون عميق من جديد، لكن هذه المرة لم يكن صمت تساؤل، بل صمت يقين. نظر الجميع نحو السماء التي كانت تتلألأ بالنجوم، وكأنها تستمع بدورها إلى هذه اللحظة المليئة بالحب والتأمل.

الفصل التاسع

"إرث الأمان: قصة شجاعة الجد يونس"

اجتمع الأب بأبنائه سمير ودنيا وشام وصفاء بعد العشاء في غرفة الجلوس، حيث كان دفء العائلة يعم المكان. بادر الأب قائلًا: "أحبائي، اليوم أريد أن أخبركم قصة سمعتها من شيخ بغزة عن جدكم يونس. إنها قصة تحمل حكمة عظيمة وتجسد قيم الجد الأصيلة."

نظر الأبناء إلى والدهم بشغف، وتعلقت أعينهم به بينما بدأ بسرد القصة على لسان الشيخ.

قال الأب: "كان ذلك في الثمانينيات من القرن الماضي. في ذلك الوقت، كنت أعمل في وزارة الداخلية في غزة. كنت شابًا نشطًا ومخلصًا في خدمتي للمجتمع. يومًا بعد يوم، كنت أعزز علاقاتي مع المواطنين والجيران، وأسعى لتحقيق الأمان والخدمات التي يستحقها أهلي. وإلى جانب ذلك، كانت تجمعني صداقات مع العديد من كبار السن."

وأضاف الأب بصوت هادئ، وقد غمره الحنين لتلك الذكريات: "في أحد الأيام، بينما كنت جالسًا في مكتبي منهمكًا في عملي، زاره الشيخ أحمد، أحد كبار السن ورجال غزة المعروفين. كان الشيخ أحمد عضوًا سابقًا في جيش الإنقاذ. وصل إلى مكتبي طالبًا استشارة تخص أمرًا اجتماعيًا. عندما شاهدته، عرفت على الفور أنه رجل يحظى بمكانة كبيرة في المنطقة."

بعد لحظات من الحديث العابر، حدق الشيخ أحمد في وجهي وسألني: "يا بني، أنت من عائلة الصالح؟"

أجبت بفخر: "نعم، أنا ابن نعمان بن يونس الصالح. هل تعرف عائلتي؟"

ابتسم الشيخ أحمد وقال: "تسألني إن كنت أعرف أهلك؟ وكيف لي ألا أعرفهم! لقد عرفت جدك يونس رحمه الله، وله قصة لا تُنسى أرغب في مشاركتها معك."

لشغفي بمعرفة تاريخ عائلتي، دعوت الشيخ أحمد للجلوس، وقمت بتحضير فنجان من القهوة ليبدأ الحديث. بعد رشفة من القهوة، تنهد الشيخ أحمد بحنين وبدأ يسرد:

"كان ذلك في وقت صعب على الجميع. الاحتلال البريطاني جعل الحياة صعبة للغاية، وكنا نعيش وسط الخوف والترقب. كنتُ أنا، كعضو في جيش الإنقاذ، في موقف خطير بعد اشتباك عنيف. كنت أهرب وأبحث عن مكان أختبئ فيه. وصلت إلى قريتك، وكان الإرهاق قد استنزفني تمامًا. علمت من أحد الجيران أن بيت يونس الصالح هو الملاذ الآمن في القرية."

صمت الشيخ أحمد لبرهة وكأنه يستحضر الذكريات، ثم تابع قائلاً: "عندما وصلت إلى بيتكم، استقبلني جدك يونس بابتسامته الرحبة عند الباب وقال لي: 'لا تخف، يا شيخ، هنا ستجد الأمان.' كان جدك يعلم جيدًا خطورة الوضع لكنه لم يتردد. أدخلني المنزل وطلب من جدتك أن تحضر لي الطعام، ثم قال لي: "ابقَ هنا حتى الصباح، وأنا سأظل مستيقظًا لأراقب الأوضاع."

اندهشت وقلت بحماس: "كيف تمكن جدي من مواجهة الخطر بكل هذه الشجاعة؟"

أجاب الشيخ أحمد بابتسامة: "كان جدك يا بني لا يخاف من المخاطر لأنه كان يؤمن بأن حماية الآخرين هي مسؤولية وشرف. لم يكن يرى نفسه فقط رب عائلة، بل كان يرى بيته ملاذًا لكل من يحتاج المساعدة."

ثم أكمل: "قضيت الليل في بيتكم، متخفيًا تحت حصيرة قديمة وضعها لي جدك في الزاوية. وخلال الليل، كان يجلب لي الماء والطعام، ويتأكد أن كل شيء على ما يرام. وفي الصباح الباكر، جهز لي طريقًا آمنًا لأعود إلى وحدتي، وودعني بكلماته المطمئنة."

كنت استمع بانبهار واعتزاز بهذه القصة، فقلت: "هذا يظهر أن جدي لم يكن مجرد رب أسرة، بل كان رجلًا لديه حس القيادة والشجاعة."

أضاف الشيخ أحمد قائلاً: "كان جدك رمزًا للكرم والحكمة يا بني. لم يكن فقط يقدم الملجأ، بل كان يعطي الأمان بأفعاله وكلماته. هذا ما جعل عائلتكم دائمًا محط احترام الجميع."

بعد انتهاء القصة، التفت الأب إلى أطفاله وقال: "هل رأيتم يا أحبائي؟ جدكم يونس كان يحمل إرثًا من الحكمة والشجاعة. هؤلاء الرجال لم يبحثوا عن الشرف، بل صنعوه بأفعالهم."

قالت شام: "أريد أن أكتب قصة جدنا يونس في مدرستي، يا أبي. أظن أن الجميع سيحب أن يعرفوا عنه."

أجاب الأب مبتسمًا: "فكرة رائعة يا شام. هذه القصص يجب أن تُروى لتلهم الأجيال الجديدة."

واختتم الأب الحديث قائلاً: "مثلما كان جدكم يونس ملجأً للآخرين، يمكن لكل واحد منا أن يكون مصدر أمان ودعم لمن حوله. المهم أن نعمل بما تعلمناه منهم، ونحمل قيمهم معنا دائمًا."

بعد انتهاء القصة، تنفس الجميع الصعداء في لحظة صمت مفعمة بالتفكير. كان الأطفال جميعًا مستغرقين في أعماقهم، وكأن الحكاية التي سمعوها عن جدهم يونس قد فتحت أمامهم أبوابًا جديدة لفهم معنى الشجاعة والحكمة. التفت الأب إليهم وقال بصوت هادئ يحمل في طياته دروسًا عميقة: "هل رأيتم يا أحبائي؟ جدكم يونس كان يحمل إرثًا من الحكمة والشجاعة. هؤلاء الرجال

لم يبحثوا عن الشرف والمجد، بل صنعوه بأنفسهم بأفعالهم النبيلة. هم لم يتطلبوا الثناء؛ بل كانت أعمالهم هي من تحدث عنهم وتبني لهم ماضيًا وحاضرًا يشهد به كل من عرفهم."

تدور الكلمات في هواء الغرفة حتى توقفت عند شام، التي كانت قد ابتسمت بشكل غامض عندما رأت الأثر الذي تركته القصة في قلوبهم. نظرت إلى والدها بعينين لامعتين وقالت بنبرة حماسية: "أريد أن أكتب قصة جدنا يونس في مدرستي، يا أبي. أظن أن الجميع سيحب أن يعرفوا عنه. هذا الرجل العظيم يجب أن يُعرف قصته من الجميع، خاصةً الأجيال القادمة."

أجاب الأب مبتسمًا وهو يضع يده برفق على رأس شام: "فكرة رائعة يا شام. هذه القصص يجب أن تُروى وتنتشر ليصل تأثيرها إلى قلوب الآخرين، فهي مصدر إلهام للأجيال الجديدة التي قد تكون في حاجة ماسة إلى التعلّم من حكمتهم وشجاعتهم. القيم التي نحملها في عائلاتنا هي جوهر القوة التي تنتقل من جيل إلى جيل، وهي التي تُشكل شخصياتنا وتساعدنا على تحقيق التغيير. كان جدكم يونس رجلًا قدوة في الصدق والكرم والإيثار، وبالطبع كل هذه الصفات لا يمكن إلا أن تؤثر فيمن يسمع قصته."

ثم تنهد الأب قليلاً وهو يواصل: " جدكم يونس، عاش حياته من أجل غيره، ولم يكن يبحث عن مكانة أو شهرة. بل على العكس، كان يخشى أن يظل بعيدا عن أنظار الناس حتى لا يبرز كفرد، بينما كانت أهميته في كونه شخصًا يقدم الأمان لغيره ويلهمهم بعطائه الصامت. الشخص الذي يقدّم الأمان للآخرين هو من يمتلك قوة فريدة لا تُقارن بأي شيء آخر. ومثلما كان جدكم يونس ملجأً لكل من طلب السلام، يمكن لكل واحد منا، في هذا الزمن، أن يكون مصدر أمان ودعم لمن حوله، سواء كانوا أصدقاء أو غرباء، نحتاج فقط لأن نستلهم منه ونفهم أن القوة لا تكمن في البطولات الضخمة، بل في الأعمال الصغيرة التي تعكس نقاء القلب."

"المهم أن نعمل بما تعلمناه منهم، ونحمل قيمهم معنا دائمًا في تصرفاتنا وفي كل لحظة نواجه فيها التحديات. فهذه القيم هي أساس إنسانيتنا، وهي القوة التي تُبقي الأمل مشرقًا في أي وقت يكون فيه الظلام قريبًا."

عندما أتم الأب حديثه، كانت الغرفة مليئة بعطور الحكمة التي رَشَّت بها كلماته، حيث أخذت العيون تلمع بأفكار جديدة وآمال بدأت تنمو في قلوب الأبناء. كان الجو هادئًا، لكن مليئًا بالإلهام الذي يجعلهم يعتقدون أن ما قاله والدهم سيظل معهم، ليس فقط كذكرى عن أجدادهم، بل كمصدر هداية يستمر مع الأيام.

الفصل العاشر

" في ظلال الشجاعة والصمت "

اجتمع الأب بأبنائه في تلك الأمسية الهادئة حيث كان الجو يملأه شعور بالراحة بعد يوم طويل. كانوا يجلسون حول طاولة بسيطة، ينعمون بدفء الأحاديث العائلية، حين قرر الأب أن يسرد لهم واحدة من ذكريات العائلة الغنية بالتجارب والدروس. قال بصوت يحمل في طياته جدية وحميمية:

"سأروي لكم اليوم قصة جدكم نعمان، لكنها ليست مجرد قصة؛ إنها درس في الشجاعة، الصبر، وحكمة التعامل مع المواقف الصعبة."

كان جدكم نعمان في الثلاثينيات من عمره عندما بدأ يشق طريقه نحو النجاح. عمل في تحرير مجلة "البيرق" بالرملة، حيث أظهر شغفًا كبيرًا بالكتابة والعمل الإعلامي، محققًا إنجازات تركت بصمة واضحة في محيطه. كانت شخصيته المميزة تمزج بين المرح الذي ورثه عن والدته، وبين الجدية والانضباط اللذين غرسهما فيه والده يونس. هذا التوازن جعله شعلة نشاط وفاعلية في حياته الاجتماعية والمهنية. زواجه الذي جاء مؤخرًا أضفى على حياته استقرارًا وسعادةً، ليصبح أكثر تركيزًا على أهدافه وطموحاته، وبذلك بدأ فصلًا جديدًا مليئًا بالأمل والتحديات.

في إحدى الأمسيات العادية، وبينما كان الجد نعمان عائدًا إلى القرية بعد يوم طويل في الرملة، حدث ما قلب تلك الرحلة الروتينية إلى كابوس. جلس في الحافلة بالقرب من النافذة، مستغرقًا في أفكاره وأحلامه البسيطة. صعد شاب معروف في القرية بسلوكه المشاغب والعدائي. كانت بينه وبين عائلة نعمان خصومة سابقة بسبب مواقف متهورة من ذلك الشاب.

جلس ذلك الشاب أمام نعمان مباشرة، ونظر إليه بنظرات لم تُخفِ نيّاته السيئة. حاول جدكم تجاهله والاحتفاظ بهدوئه، لكن التوتر في الهواء كان لا يُحتمل، وكأن المواجهة بينهما قد كُتبت عليها أن تحدث.

حين توقفت الحافلة قرب زاوية القرية، نزل جدكم واستعد للسير نحو منزله. لكن الشاب تبعه عن كثب، موجهًا له كلمات مشحونة بالإهانة والتحدي. قبل أن يدرك ما يحدث، وجد نفسه مهددًا بالسلاح ومقتادًا إلى مكانٍ خالٍ ومظلم.

في تلك اللحظات العصيبة، تجسّد الخوف كظلال داكنة تغمر روحه، لكنه رفض أن يكون أسيرًا لهذا الإحساس المروع. كان صوت الليل ساكنًا، والوحدة تضاعف من وطأة الموقف. عيناه تراقبان كل حركة يقوم بها الشاب، ونبض قلبه المتسارع يُذكّره بأن كل قرار يمكن أن يكون الأخير. في عقله، تردد صدى كلمات والده، ذلك الصوت الأبوي المليء بالحكمة: "الثبات وقت الأزمات هو الفرق بين الحياة والموت."

بقي جسده متصلبًا كوتر مشدود، لكن ذهنه كان كالعاصفة، يحسب كل خطوة ويحاول أن يقرأ نيات هذا المعتدي الذي كانت عيناه تحملان شبح التهور. بدا الشاب وكأنه يُغرق المكان برائحة التهديد والغموض. كلما اقترب أكثر، زادت المسافة النفسية بين نعمان والخطر المحدق، وكأنه كان يستجمع كل شجاعة متبقية في داخله لمجابهة ما قد يأتي.

وفي لحظة بلغت فيها التوترات ذروتها، عندما اختلطت الأنفاس السريعة بضجيج صامت، انبثق من داخله صوت صاعق، لم يكن مجرد نداء، بل صرخة استغاثة تخترق صمت الليل وتشق طريقها في الهواء:

"أنقذوني! أنقذوني!"

تردد صدى صوته كنبضات قلب منهك على وشك الانفجار، وترك كلماته كأنها سهام تجوب الأفق الغامض. تلك الصرخة لم تكن مجرد طلب للنجدة؛ كانت إعلانًا صريحًا برفضه الاستسلام، إعلانًا عن عزمه على مقاومة مصيره.

ومع انطلاق الصوت، تسللت رعشة غير متوقعة في سلوك المعتدي، كأنها أصابته بصاعقة. أما جدكم نعمان، فقد استعد للوقوف حتى الرمق الأخير، وارتفع في داخله أمل خافت بأن هذا النداء قد لا يذهب هباءً في الليل الكئيب.

صدحت كلماته في صمت الليل، فجاءت الإجابة سريعًا. مجموعة من الجيران كانوا بالقرب من المكان، وما إن سمعوا النداء حتى أسرعوا لتقديم المساعدة. حين رأى الشاب ذلك، تراجع واستدار ليهرب في الظلام.

عاد جدكم نعمان إلى المنزل مرهقًا ومغطى بالغبار، بينما عينيه تحملان انعكاسًا للتعب والقلق. ما إن طرقت أقدامه باب المنزل، حتى فتحت له جدتكم سلمى، تلك المرأة التي عُرفت دومًا بحنانها وحكمتها. ما إن رأته على تلك الهيئة حتى اتسعت عيناها بخوف وقلق، وسألت بصوت متسارع:

"نعمان... ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟"

حاول أن يخفي جزءًا مما يعتمل بداخله، لكنه وجد صعوبة في ذلك أمام نظراتها التي بدت وكأنها تقرأ ما وراء كلماته. جلس على الكرسي بهدوء، مسح وجهه بيديه، وتنهد بعمق قبل أن يقول:

"لا تقلقي يا سلمى، أنا بخير الآن... فقط ليلة طويلة ومليئة بالمفاجآت."

نظرت إليه بعيون يملؤها الفضول والخوف معًا، قائلة بصوتها الرقيق:

"نعمان، أنا أعرفك جيدًا. ما حدث لم يكن مجرد يوم عمل مرهق. لقد عدت وأنت تحمل همًا أكبر مما تظهره. أخبرني، ماذا جرى؟"

تردد للحظة، وكأنه يفكر في مدى التفاصيل التي عليه مشاركتها. ولكنه استسلم أمام إصرارها وقال:

"سأخبرك يا سلمى، لكن عليك أن تهدئي. في طريق عودتي، واجهت موقفًا خطيرًا. أحد الشبان... كان يحمل السوء في قلبه وهددني، ولم يكن هناك أحد لمساعدتي. كان يمكن أن ينتهي الأمر بشكل سيئ لولا أن صرخت واستجاب بعض الجيران لإنقاذي."

بدت سلمى مصدومة، لكنها أخفت انفعالاتها بسرعة، ووضعت يدها على كتفه لتمنحه الدعم، وقالت بصوت مليء بالثبات:

"الحمد لله الذي حفظك يا نعمان. لقد كنتَ شجاعًا، وكان تصرفك هو الفارق. ولكن هذا خطر حقيقي يا نعمان. يجب أن نكون أكثر حذرًا في المستقبل."

رد عليها بصوت هادئ، وقد بدأ يستعيد هدوءه:

"أعلم يا سلمى. ما حدث كان درسًا لن أنساه. سأكون أكثر حرصًا، لكنني أطلب منك أمرًا... دعينا نحتفظ بهذا بيننا. لا أريد أن يعرف أحد في القرية، فهذا قد يسبب المزيد من المشاكل."

ترددت سلمى للحظة قبل أن تجيبه بحكمة:

"سأفعل ما تطلبه، نعمان، لكن أعدني أنك ستفكر جيدًا قبل أن تخفي مثل هذه الأمور عني مرة أخرى. أنت تعرف أننا نواجه الحياة معًا، وعلينا أن نكون دائمًا مستعدين لما قد يأتي."

ابتسم ابتسامة خفيفة، رغم التعب الذي بدا عليه، وقال بصوت يمزج بين الامتنان والتأثر:

"أعدك يا سلمى. كنتُ سأضيع لولاك، أنتِ قوتي."

قابلت كلماته بابتسامة دافئة وهي تضع يدها فوق يده قائلة:

"وأنت أماننا يا نعمان. ما دمنا معًا، يمكننا التغلب على كل شيء."

وهكذا، خيمت بينهما لحظة من السكينة والاطمئنان، حيث أدركا أن الحب والدعم المتبادل هو ما سيحميهما دائمًا، مهما اشتدت التحديات.

بمرور الأيام، أبقى جدكم نعمان تلك الحادثة طي الكتمان. لم يرغب في أن يفتح أبوابًا جديدة للمشاكل، ولا أن يجر عائلته إلى مسارات قد تكون مليئة بالتعقيد والخطر. كان يدرك أن الحديث

عنها قد يستثير غضب البعض أو يلفت أنظارًا غير مرغوب فيها. لذلك، اختار الصمت كوسيلة لحماية نفسه وأحبائه، مكتفيًا بتحمل العبء وحده.

لكن تلك التجربة لم تمر عليه مرور الكرام؛ لقد تركت أثرًا عميقًا في روحه وأصبحت درسًا غرس في نفسه قوة جديدة. لقد كان يعلم أن مواجهة الحياة لا تعني دائمًا المواجهة المباشرة أو التصرف بقوة ظاهرة، بل كثيرًا ما يكون المفتاح هو الصبر، الحكمة، واستدعاء القوة الداخلية التي تنبع من الثقة بالله ومن قدرة الإنسان على ضبط النفس وتحمل الصعاب.

بعد سنوات طويلة، اكتشف الأب أسرار تلك اللحظة عندما فتح مذكرات نعمان التي كان يحتفظ بها بحرص بالغ. لقد دُونت تلك الحادثة بحروف قليلة، ولكن بمعانٍ كثيرة، وكأنها رسالة مشفرة للأجيال القادمة. كتب نعمان:

"ليست كل معركة تتطلب السلاح، وليست كل مواجهة تتطلب الصوت العالي. بعض المواقف تتطلب فقط قلبًا قويًا وإيمانًا راسخًا بأن ما يُكتب لنا خيرٌ، وأن الصمت أحيانًا هو أقوى درجات الحكمة."

من خلال تلك الكلمات، أدرك الأب أن جدهم كان يرى الحياة من منظور خاص. بالنسبة لنعمان، كانت الحياة مزيجًا من الاختبارات والمحن التي تكشف عن معادن الرجال وتُظهر قوتهم الحقيقية. تلك الحادثة، التي ربما بدت تجربة عابرة في لحظتها، أصبحت دليلًا على أنه يمكن مواجهة أصعب اللحظات بالثبات والإيمان، دون الحاجة إلى التصعيد أو المواجهة المباشرة.

وعلى الرغم من مرور الزمن، بقيت تلك الكلمات محفورة في ذاكرة الأب، تُذكّره بأن القوة الحقيقية تكمن ليس في الانتصار على الآخر، بل في الانتصار على الخوف الذي يسكن في أعماقنا، والقدرة على اتخاذ القرارات التي تحمينا وتحفظ سلامتنا وسلامة من نحب.

بعد انتهاء الأب من سرد القصة، نظر إلى أطفاله بعينين تحملان مزيجًا من الفخر والحزن، وقال:

"الشجاعة ليست فقط في مواجهة الخطر، لكنها في كيفية التصرف بحكمة وقت الأزمات."

تأمل سمير قليلاً ثم قال بصوت خافت: "لكن يا أبي، كيف تحمل جدنا تلك اللحظات المرعبة؟ ألم يشعر بالعجز ولو للحظة؟"

تنهّد الأب قائلاً: "بالتأكيد كان خائفًا، فهو إنسان، والخوف شعور طبيعي في مثل تلك المواقف. لكن القوة الحقيقية تكمن في ألا ندع هذا الخوف يُسيطر علينا. جدكم كان يعرف أن لديه من ينتظره ويعتمد عليه، وكان هذا الشعور كافيًا ليمنحه الشجاعة ليستمر."

قالت دنيا وعلامات التأثر واضحة على وجهها: "لكن لماذا اختار أن يكتم ما حدث يا أبي؟ أليس من الأفضل أن يُخبر الآخرين ليحذرهم من الخطر؟"

ابتسم الأب بحزن خفيف وأجاب: "في بعض الأحيان، الصمت يكون أشد حكمة من الكلام، خاصة عندما يكون البوح قد يزيد من تعقيد الأمور. جدكم لم يرغب في أن يُلقي ظلال تلك التجربة الثقيلة على عائلته أو قريته. فضّل أن يطوي تلك الصفحة بنفسه."

بدت شام متأثرة وهي تقول: "أشعر وكأنه كان يعاني بصمت. شجاعته تلهمنا الآن يا أبي، لكنها تجعلني أحزن عليه أكثر. كم تحمل وحده ليحمينا جميعًا!"

تأمل الأب كلامها قليلاً، ثم قال بفخر مشوب بالحزن: "بالضبط يا شام. أحيانًا، تحمل العبء وحدك هو ثمن الحكمة والقوة. جدكم نعمان أرادنا أن نتعلم أن التماسك الداخلي، مع الإيمان بالله والعقلانية، هو ما يعيننا على مواجهة أصعب المواقف."

قالت صفاء بنبرة هادئة: "لكن يا أبي، ماذا عن جدتنا سلمى؟ كيف كانت تستطيع أن تكون سندًا لجدنا نعمان في تلك الظروف؟ لابد أنها كانت رائعة."

ابتسم الأب لأول مرة بعد حديثه الطويل، وقال: "جدتكم سلمى كانت عمود البيت وسر توازنه. شجاعتها كانت مختلفة، لكنها لا تقل عظمة عن شجاعة نعمان. كانت تضمد جراحه بكلماتها، وتحمي قلوبنا من الانكسار بصبرها. سأروي لكم قصتها قريبًا، فهي مليئة بالدروس أيضًا."

ساد الصمت لبرهة، وعيون الأطفال مليئة بالتأثر، وكأنهم يشعرون بعبء تلك الحكايات التي كان أجدادهم يحملونها في صمت. قالت دنيا بصوت متهدج: "لو كان جدنا هنا الآن، لكنت أخبرته كم نحن فخورون به."

اقترب الأب منهم واحتضنهم بحنان، وقال بابتسامة هادئة: "قصص أجدادكم مليئة بالحكمة والشجاعة، وهي هديتهم لنا لنستمد منها القوة لنواجه بها حياتنا. دعونا نستذكرهم دائمًا بالدعاء، ونسير على خطاهم بقلب شجاع ونية صادقة."

الفصل الحادي عشر

"حب سلمى - قصيدة عمر"

في مساء اليوم التالي، جلس الأب مع أطفاله حول الطاولة في غرفة الجلوس، يتناثر الضوء الدافئ من المصباح القديم على الوجوه الفضولية. ابتسم الأب بابتسامة هادئة وهو ينظر إلى أولاده وقال:

"هذا المساء سأحكي لكم عن جدتكم سلمى، كما وعدتكم البارحة."

توقف قليلاً ليأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يبدأ في سرد القصة. "عندما أتحدث عن أمي، أتذكر كيف كان جدكم نعمان يرويها، وكأنها القصيدة التي لا تنتهي، كانت نبض حياته بكل تفاصيلها."

كانت نظرات الأب تتجول بين وجوه أطفاله، وهو يشعر بأن هذا الحديث ليس مجرد سرد لحكاية قديمة، بل هو نافذة تفتح على الماضي، تروي لهم ما قد يشعرون به وهم يكبرون في ظل هذا الحب العميق. وبينما كانوا يترقبون، بدأ الأب في كلامه:

كانت جدتكم سلمى، يا أبنائي، أكثر من مجرد امرأة؛ كانت رمزًا للحب الحقيقي، القوة الصامتة التي تصنع الفارق في حياة الآخرين. كانت الحلم الذي يأبى أن يزول من الذاكرة، رغم مرور الزمن. كلما تحدث عنها جدكم نعمان، كانت كلماته تنبض بحنان لا يمكن إنكاره، وكأن وجودها في حياته كان هو السبب في تألق كل لحظة عاشها.

جدتكم سلمى كانت ابنة عمة جدكم نعمان، ورفيقة طفولته في أزقة قريتنا القديمة. نشأ الاثنان معًا تحت ظلال أشجار الزيتون، يتشاركان الألعاب والأحلام، وكأن الحياة كانت تمهد لهما طريقًا مشتركًا منذ البداية. كان الحيّ يعج بأصواتهما الضاحكة، يتنقلان بين البيوت القديمة كما لو أنهما جزء من ذاك المكان، ينسج كل واحد منهما حكاية من ألوان الفرح التي لا يفسدها الوقت.

يصف جدكم علاقته بجدتكم سلمى بأشعاره: "كانت سلمى، بنظراتها الهادئة وضحكتها الصافية، أكبر من حب طفولة. كانت الإلهام الذي يجعل القلب يفيض بالفرح، ولا يزال في كل ذكرى أشعر بحضورها، في كل نبضة أكتبها لاحتفظ بشذى حبها."

لم يكن حب جدكم نعمان لجدتكم سلمى مجرد تعبير عن مشاعر طارئة، بل كان حبًا عميقًا ينبت في كل لحظة ويكبر كلما مر الزمن. كانت حياة الحبيبين محكومة بالأحلام التي رسموها معًا. وكان كل شبر في تلك القرية يعج بتفاصيل صغيرة حملتها تلك العلاقة الوادعة. وحتى في قلب الأسى الذي داهم حياتهم بعد الفراق، بقيت روحهما مترابطة في ذكرياتهما العميقة.

ولكن يا أبنائي، لم تكن قصة حبهما سهلة. كانت مليئة بالاختبارات التي أثبتت قوتهما وإصرارهما على أن يكونا معًا. عندما بلغ جدكم نعمان العشرينات، غادر القرية ليتعلم في القدس، وكان دائمًا يحمل ذكرى سلمى معه كأنها أغلى ممتلكاته. كان يكتب لها رسائل وقصائد يصف فيها شوقه ومحبته. لكن الحياة لم تمنحهما السهولة التي تمنى كل منهما.

ذات يوم، وصل جدكم نعمان رسالة من سلمى تخبره أن ابن عمها تقدم لخطبتها، وأن والدها أبدى موافقته. يقول نعمان في مذكراته إنه شعر وقتها وكأن قلبه انقسم نصفين. لكنه لم يستسلم للحزن؛ قرر أن يعود إلى القرية ليصارع من أجل حبه.

عندما عاد، جمع شجاعته وتوجه مع والده، جدكم يونس، إلى منزل عمها. تحدّث نعمان بصراحة وصدق أمام العائلة، وقال إن سلمى ليست فقط ابنة عمة، بل هي روحه وشريكة حياته التي لا يمكنه تخيل المستقبل بدونها. بكلماته الصادقة وحكمته، استطاع أن يثبت جدارته بحبها.

بعد مشاورات وتفاهمات، تراجع ابن عم سلمى عن طلبه، وأعلنت سلمى قبولها لنعمان بابتسامة ملأت قلوب الجميع بالفرح. كان زفافهما يومًا لا يُنسى، ملأه الحب والبساطة. قال الحاضرون آنذاك إنهما كانا يبدوان وكأنهما كُتبا لبعضهما منذ الأزل.

لكن يا أبنائي، ليست هذه نهاية القصة...

جدتكم سلمى لم تكن مجرد زوجة لجدكم، بل كانت شريكته في كل خطوة على طريق الحياة. كانت أكثر من رفيقة؛ كانت الحلم والمساندة، الدعم الذي لا يتزعزع، والقوة التي تبقيه ثابتًا في وجه

تحديات الحياة. في كل محنة، كان قلبها الدافئ هو الحافز الذي يدفعه للاستمرار، وعينيها المليئتين بالأمل كانتا تبلسمان جراحه.

كانت جدتكم تسانده بلا شروط، توفر له الهدوء وسط العاصفة، وتكون دعامة له في لحظات ضعف لا يظهرها لأي شخص آخر. يقول في اشعاره: "كانت سلمى هي القوة الهادئة التي تحمل أحلامي على كفّ يديها، تبني معي كل جدار في بيت أحلامنا. لا يتغير حضورها، مهما طال الزمن أو اشتدت الصعاب، كانت دومًا مصدر الأمل والتجدد."

ومن خلال كلمات قلبه، يشعر الإنسان كيف كانت جدتكم تنسج له الأمل والطمأنينة كما تنسج الأيدي الماهرة أجمل الأقمشة. وحتى عندما كانت تتعامل مع الحياة بتواضع شديد، كانت تبني معه عالمًا ينبض بالقوة والأمل.

لكنها رحلت مبكرًا. تركت هذا العالم وهي لا تزال في أوج عطائها، في وقت كانت فيه لا تزال تحتفظ بجمال قلبها ونقاء روحها. كانت حياتها مليئة بالعطاء والحب، وكان حضورها في عالمه براقًا وكأنها توقفت اللحظات فقط لتستمتع بتفاصيل وجودها. وعندما غابت، فقد كانت الشمس قد أخفت أشعتها، والسماء امتلأت بالغيوم السوداء.

رحيلها كان أعظم ألم مرّ به جدكم نعمان. كان وكأن كل شيء في العالم قد انهار في لحظة واحدة. لقد غاب جزء كبير من حياته وذهبت معه كل تلك اللحظات التي كانت تقاس بالابتسامات المشتركة، والأحلام التي تم بناؤها سويا. كان قلبه يئن من الحزن، ورغم العجز الذي أحاط به، كان يعلم أنه لن يكون هناك أبدًا شيء قادر على أن يعيده كما كان.

مع ذلك، لم تكن نهاية لحبهما. ظل يكتب لها القصائد بعد وفاتها، ليس كأنها ذكرى غادرت، بل كما لو كانت روحها لا تزال ترفرف حوله، تنصت لكلماته وتجيب عن صمته بأغاني في قلبه. يقول في أحد قصائده: "سلمى لم تمت في قلبي، كانت دائمًا في كلماتي، وفي كل شروق أراه وحدي." وبالنظر إلى كل كلمة كانت تطفو على لسانه، أصبح الشوق والحنين لعينيها مصدر إلهام لا ينتهي، ينبعث من روحه كالنور الذي يحيي فجرًا جديدًا في قلبه الحزين.

كان يذكرها في كل نبضة من قلبه، وكل خفقة كانت تشبه لغزًا لا نهاية له. فحتى في غيابها المادي، كان الوجود بقلبه ما يزال مشرقًا بوجودها، وعلى الرغم من فقدان جسدها، كان حبها هو القوة التي دفعته للكتابة وخلّد كلمات لم تقتصر فقط على ذكرى، بل ظلت حية وواقعية، تمامًا كما هو الحب الذي حمله إليها.

قالت دنيا متأثرة: "يا أبي، هل كان جدي سعيدًا بعد وفاتها؟"

أجاب الأب بصوت خافت: "يا دنيا، السعادة ليست دائمًا في وجود من نحب بجانبنا. أحيانًا، تكون في الذكريات التي تركوها معنا. جدكم كان يعيش بسلمى حتى بعد رحيلها، وكان يشعر بأنها معه دائمًا."

ردت شام بدهشة: "كيف يستطيع الإنسان أن يحتفظ بهذا الحب بعد كل تلك السنوات؟"

ابتسم الأب بحنان وقال: "لأن الحب الحقيقي لا يزول. جدكم نعمان لم يكن يحب سلمى فقط كشخص، بل أحب الروح التي زرعتها فيه، وحبها منحه القوة ليستمر حتى بعد فقدانها."

صفاء، التي شعرت بدفء الكلمات، قالت: "أريد أن أعرف المزيد عن قصائد جدي لها. هل سنجدها في مذكراته؟"

أجاب الأب مبتسمًا: "نعم، يا صفاء. كل قصيدة كانت رسالة لسلمى، وكل كلمة كانت طريقتها في البقاء معه رغم غيابها. إذا قرأتم تلك الكلمات، ستشعرون بحبهما وكأنه أمامكم يعيش الآن."

ثم قال الأب مختتمًا حديثه: "الحب يا أبنائي ليس فقط في اللحظات الجميلة التي نتشاركها، لكنه في الوفاء الذي نظل نحمله حتى النهاية. وهذا ما تعلمناه من جدكم نعمان وجدتكم سلمى، وما أرجو أن تتعلموه أنتم أيضًا."

ساد صمت عاطفي في الغرفة، وكأن الجميع تخيلوا سلمى ونعمان معًا في تلك اللحظات الماضية، ليعيدوا إحياء قصة حب أبدية في قلوبهم.

الفصل الثاني عشر

"ظلُّ الحب: قصة سلمى وعطاؤها الأبدي"

في مساء اليوم التالي، جمع الأب أبناءه حوله، عينيه تملؤهما لمحة من الحنين وهو يبتسم. قال بصوت هادئ، محاطًا بمشاعر الذكريات: "اليوم سأحكي لكم عن جدتكم سلمى، كما أخبرني عنها عمكم فهيم، أخو جدكم نعمان. كان عمكم فهيم طالبًا في الجامعة في تلك الأيام، مليئًا بالحلم والطموح. أما جدتكم سلمى فكانت في ذلك الوقت زوجة أخيه البكر نعمان، ولكنها كانت بالنسبة لعمكم فهيم أكثر من مجرد زوجة اخ. كانت بمثابة الأخت الكبرى، وفي أحيانٍ كثيرة كانت تكون كالأم التي ترعى وتوجيه."

رفع الأب نظره إلى أبنائه، ليجعلهم يشعرون بعمق حب العائلة، ثم أضاف قائلاً: "كانت جدتكم تحمل في قلبها حبًا استثنائيًا لكل أفراد العائلة، وتفانيها في خدمة من حولها لا يُضاهى. كانت تجمع الجميع بحبها وحكمتها. في تلك الفترة، كانت حياة عمكم فهيم مليئة بالتحديات في المدينة، فقد كان بعيدًا عن أسرته، يواجه بمفرده غمار الحياة الجامعية، يتعامل مع وحدته وعذاباته بعيدًا عن العائلة التي كانت دائمًا المصدر الأساسي لراحته."

قال الأب بصوت محمّل بمشاعر الأبوة، مسترجعًا الحكاية كما رواها له عمه فهيم: "عمكم فهيم كان يشعر بفراغ كبير خلال دراسته. كانت والدته وردة مشغولة بتوفير لقمة العيش ورعاية المنزل، حيث جدكم يونس كان مقعدا، أما جدكم نعمان فكان يُركز على عمله الجديد كمدرس في مدرسة القرية. ولكن، كانت جدتكم سلمى تعرف جيدًا هذا التحدي الذي يعيشه عمكم فهيم، فقررت أن تكون له السند الحقيقي."

أخذ الأب نفسًا عميقًا وهو يتابع: "كلما جاء عمكم فهيم لزيارة العائلة في عطلة نهاية الأسبوع، كانت جدتكم سلمى تعتني به كما لو كان أحد أبنائها. كانت تحرص على استقباله بحفاوة، وتعد له الطعام المفضل وتُحضّر له ثيابه. كانت تفرح بتفاصيل خدمة العائلة. يديها اللتين تحملان العطاء بكل تواضع وصدق، بلا أي انتظار مقابل."

ابتسم الأب، وملأت عيناه لمحة من التأمل وهو يواصل حديثه: "كنت أسمع من عمكم فهيم كيف كانت جدتكم دائمًا توضع المال في جيبه دون أن يشعر بذلك. كانت تفعله بسرية تامة وكأنها لا تريد

أن تظهر شيئًا، كأنها تدرك في قلبها أن العطاء ليس بحاجة إلى اعتراف أو شكر. لم تكن تبالغ في إظهار مساعدتها، بل كانت تُبدي اهتمامًا عميقًا بطريقة غير ظاهرة، لأنها كانت تعرف جيدًا أن حاجات الناس أحيانًا ليست بالضرورة أن تُعلن، بل يمكن أن تُحس وتُشبع بالحب والمساعدة الصامتة. كانت تعتبر أن المهم هو أن تُسهل حياة أحد أفراد العائلة، وإن كانت هذه المساعدة صغيرة في نظرها، إلا أنها كانت تجعل فرقًا كبيرًا في حياتهم. كانت تحمل في تصرفاتها فلسفة العطاء بدون حساب، دون أن تترقب التقدير أو الشكر، فما كان يشغل قلبها فقط هو راحة الآخرين، وإذا استطاعت أن تُحدث فرقًا طفيفًا في حياة من تحبهم، فهذا يكفي عندها لتشعر بأنها قد قامت بالواجب وأعطت ما كان في قلبها دون ضجيج."

أضاف الأب بنبرة مليئة بالفخر: "كانت هذه واحدة من العديد من الأمثلة التي تبين لنا جوهر شخصيتها. كانت سيدة فاضلة تهتم بالجميع من حولها، تقدم لهم دون أن تطلب شيئًا، وكل ما تريده هو أن ترى البسمة على وجوههم، راحة في قلوبهم. وحينما يعترض طريق أحدهم، كانت تكون اليد الحانية التي تمد لهم العون."

"وهكذا كانت تفعل مع الجميع"، تابع الأب وهو يبتسم قائلاً: "مع زوجها، مع والدها، مع والدته وردة، ومع جميع أفراد العائلة. لم يكن هناك شخص من عائلتها إلا وكان له نصيب من حنانها واهتمامها، لا تفاخر بذلك ولا تظهره، بل كان ذلك جزءًا من شخصيتها العميقة التي تبعث الأمان في قلوب الجميع. كانت تقوم بهذا بكل حب ودون تردد، وكأن دورها في الحياة كان أن تبث الراحة في أرواح من حولها، وتخفف عنهم في صمت.

كانت جدتكم سلمى تقتنع تمامًا أن الحياة لا تستقيم إلا حين يشعر كل شخص في العائلة بأنه محاط بالحب والرعاية. كانت تؤمن أن العائلة هي الكائن الأسمى في الحياة، وأن سلامتها وراحتها تبدأ من بذور العطاء دون انتظار مقابلاً، وأن الحب الحقيقي لا يتم إلا عندما يكون كل فرد فيها مغطى برعاية أسمى وأعظم من الكلمات. بالنسبة لها، لم يكن هناك شيء أعظم من أن ترى أسرتها في سعادة، وأن يكون هناك توازن تام بينهم، يتشاركون الألم كما يتشاركون الفرح.

ومهما كانت الظروف أو التحديات التي تواجههم، كانت دائمًا تمد يدها لهم، تعطهم القوة لتخطي صعوبات الحياة بحب لا نهاية له، وكانت تسعى جهدها لزرع السكينة في قلوبهم من خلال تلك اللمسات الطيبة التي كانت تسعى لنشرها طوال حياتها. تلك هي أعمق ما كانت تقدمه لهم: حضن مليء بالأمان، وكلمات تنبع من قلبها تحمل البركة والحنان، وتضحي بكثير من أجل ألا يشعر أحدهم بالتعب أو الألم."

ثم نظر الأب إلى أبنائه وقال بابتسامة تحمل مزيجًا من الفخر والحب، وكأن قلبه يفيض بمشاعر عميقة: "من هذه القصص تعلمنا أن جدتكم سلمى كانت أكثر من مجرد زوجة لجدكم نعمان. كانت أمًا حقيقية للجميع، تربط قلوبهم بحبها وعطفها اللامحدود، وتعطي دون حساب. كانت روح العائلة، وكانت تبث فينا جميعًا ما تحتاجه الأرواح ليبقى بعضها مترابطًا، ينبض بالحب والاطمئنان. كان عطاءها بلا حدود، لم تكن تقدم الحب فقط، بل كانت تمنح الأمل، وتزرع الطمأنينة، وتخلق جوًّا من الرعاية لا يمكن لأي شخص إلا أن يتفاعل معه بإيجابية.

وما يميزها أيضًا أنها كانت تدرك جيدًا جوهر الحياة، وأن العطاء هو الذي يجعل الروابط أبدية، ويجعل الأشخاص يتذكرون بعضهم إلى الأبد، ليس بما قالوه أو فعلوه فقط، ولكن بما أبدعوه من مشاعر وذُكر في العيون. كانت مؤمنة إيمانًا عميقًا أن الحب الحقيقي لا يعرف الحدود، فهو ليس مجرد شعور ينبعث في القلوب، بل هو فعل وحركة حية تتجلى في التعاملات اليومية البسيطة. والحب في نظرها، لا يقتصر على الأحرف والكلمات، بل يتجسد في كل تصرف وحركة، في الاهتمام الذي لا يتوقف، في العناية التي لا تحسب.

كانت جدتكم سلمى تعرف كيف تجعل كل فرد في العائلة يشعر بأنه جزء لا يتجزأ من الوجود، وتمنحه من حنانها قوة لا تنتهي. سواء كانت كلمة حب أو لمسة عطف، كانت تحوّل الأيام الصعبة إلى أوقات تحمل في طياتها الفرح والسكينة. وبالحب الذي كانت تبثه في كل زاوية من حياتنا، علّمتنا كيف نحب بلا حدود، وكيف نهتم من القلب، وكيف نكون معًا في السراء والضراء، ونتحدى الأوقات الصعبة بحب غير مشروط."

تابع الأب، متسائلًا بابتسامة: "والآن، ماذا تتصورون أنتم عن جدتكم سلمى؟ هل ترون أن هذه المواقف التي مرّت بها في حياتها تعكس شخصيتها الحقيقية؟"

أجاب سمير بابتسامة هادئة: "لقد كنت دائمًا أسمع عن حنانها العميق، وكيف كانت تسعد في العطاء دون أن تطلب شيئًا في المقابل. كان قلبها مليئًا بالسلام، ويدها ممتدة لمن يحتاج إليها."

قالت دنيا بتفكر عميق: "أعتقد أنها كانت فريدة جدًا، حتى في الأوقات الصعبة كانت تتجاوز كل التحديات بابتسامة، وتعلمنا الحب دون شروط. كانت تُعلمنا أن الفعل يعبر أكثر من الكلمات."

فيما كانت صفاء تجلس مستمعة بصمت، لاحظ الأب تفاصيل الأفكار في أعينهم قبل أن تجيب صفاء، "كان من الواضح أن كل كلماتها وقراراتها كانت نابعة من قلب مليء بالعاطفة. كان سلوكها دائمًا هو مرآة لمشاعرها النبيلة."

قال الأب مبتسمًا وهو ينظر إليهم بعينين تتلألأ بهما الذكريات الجميلة: "نعم، تمامًا. كانت جدتكم سلمى رمزًا حقيقيًا للعطاء غير المشروط. لم يكن هناك يوم يمر إلا وكانت تقدم حبها واهتمامها لأفراد العائلة دون أن تنتظر ردًا أو مقابل. كانت تفعل ذلك بكل بساطة وصدق، وكأن فعل العطاء هو طبع أصيل فيها لا يمكن أن يزول. ومع مرور الأيام، تعلمنا منها أن الحب ليس مجرد كلمات تخرج من الأفواه، بل هو أفعال تُثبت صدق المشاعر وأصالته.

وكانت دائمًا تبرهن لنا أن الحب الحقيقي لا يحتاج إلى أدلة مادية أو تصاريح مبهرة. بل يكفي أن تلامس قلوبنا الأفعال اليومية البسيطة التي تصنع فارقًا كبيرًا في حياتنا. كانت تضع لمستها في كل تفاصيل حياتنا، وتقدم الدعم عندما نحتاج إليه من دون أن نطلب. تلك هي الحقيقة التي علمتنا إياها، بأن الحب لا يتطلب لغة معقدة، بل قلوبًا مليئة بالعطاء والإخلاص.

لا شك أن أفعالها كانت أكبر من أي كلمة، وبفضلها فهمنا أن الحب لا يحتاج إلى كلمات جميلة بقدر ما يحتاج إلى أفعال تعكس صوته الحقيقي. نحن اليوم هنا نتحدث عنها، نذكرها بكل حب وامتنان لأننا نعرف أنه ما كان لهذه العائلة أن تظل متماسكة لولا تلك الروح العطاء، تلك الروح التي تجسدت في شخصيتها ولم تفارقها حتى بعد رحيلها."

أضاف الأب بنبرة مليئة بالحنين والتقدير: "لقد كانت أكثر من مجرد زوجة لجدكم نعمان. كانت أسطورة حية في حب العائلة، وزعيمة في قوتها وصلابتها. لا يمكنك أن تكتب تاريخًا للحب دون أن تذكر اسمها. كانت تحمل في قلبها سِرَّ الحب والعطاء الذي لا ينضب، وكانت تَجسِّد معنى التضحية دون توقع مقابل. عرفنا جميعًا معنى الحب الحقيقي من خلال أفعالها. كانت تعلمنا كيف نحب ليس بالكلام وحده، بل بالاهتمام في اللحظات الصعبة، وبالعطاء حين يطلبه الآخرون، بل وبالعطاء حتى دون أن يُطلب."

تابع الأب وهو يبتسم: "كان لديها تلك القدرة الفائقة على أن تجعل الجميع يشعرون بالراحة والطمأنينة، سواء كان ذلك بابتسامة صغيرة، أو بحركة يديها التي دائمًا ما كانت تُعَبِّر عن دعم لا محدود. قد تبدو بسيطة للآخرين، لكن ذلك هو سر حبها القوي والصلب الذي كان قادرًا على ربط الجميع بها. كل فعل منها كان يحمل معاني كبيرة لدرجة أن كل كلمة قالتها كانت عميقة في داخلنا إلى يومنا هذا."

جلس الأب قليلاً ثم قال: "وفي النهاية، تعلمنا منها أن الحب الحقيقي هو الذي يستمر ويعبر الأوقات الصعبة. لأن الحب ليس فقط ما نفعله لبعضنا في اللحظات السهلة، بل هو كيف نكون هناك لبعضنا عندما تغلق الأبواب وتبدأ التحديات. الحب في نظرها كان سر بقاء العائلة والوقوف معًا مهما كانت العواصف."

نظر الأب في أعين أبنائه، وكأن الملامح قد تلوّنت بذكريات وتوقعات للمستقبل: "هذا هو المعنى الذي زرعته في قلوبنا، وهذا هو السر الذي جعلكم هنا الآن، في هذا اللحظة. لأن المحبة التي

أسستها جدتكم سلمى هي الروح التي أضاءت عائلتنا، ونحن هنا لنجعلها تنبض وتتجدّد من جيل إلى جيل."

سكت الأب للحظة، معاتبًا نفسه على كل مرة لم يُقدر فيها معنى تلك الأفعال الصادقة، ثم تنفس بعمق وأكمل قائلاً: "لقد علمتنا أن العائلة ليست مجرد روابط دم، بل هي لحظات من الحب والعطاء بلا شروط، وأنا أتمنى أن نتمسك بهذه القيم في كل لحظة من حياتنا."

الفصل الثالث عشر

"عطاء بلا حدود: تضحيات الجدة سلمى من أجل العائلة"

في مساء اليوم التالي، جلس الأب مع أبنائه حوله، وعيناه تلمعان بالحنين والشوق. ابتسم وهو ينظر إليهم، وقال بحنان: "اليوم، سأروي لكم قصة أخرى عن الجدة سلمى، قصة من قصص العطاء اللامحدود، قصة أمي الحبيبة التي علمتنا معنى التضحية."

في تلك الأيام التي كانت فيها الحياة ضاغطة على كل فرد من أفراد الأسرة، كانت الجدة سلمى بمثابة النور الذي يضيء الطريق. على الرغم من الصعاب التي مرت بها، من ظروف مالية صعبة إلى أوقات الشدة التي واجهها زوجها جدكم نعمان، إلا أنها كانت دائمًا الأمل والقوة في حياته. بالنسبة لها، لم يكن الحب مجرد مشاعر تملأ القلب، بل كان فعلًا يوميًا يُثبت أفعالًا صغيرة وبسيطة تعكس عمق العلاقة وحجم التقدير الذي تعطيه لأفراد عائلتها.

حين بدأت ظروف الحياة تُثقل كاهلهم، وكان جدكم نعمان يواجه تحديات هائلة نتيجة تزايد المسؤوليات التي كانت تقع على عاتقه، فقد أصبح يتنقل بين مهامه المتعددة. كان عليه التدريس في مدرسة القرية إلى جانب محاضراته في الجامعة، مما جعل أيامه مليئة بالأعباء التي كانت تستهلكه جسديًا وعقليًا. ومع كل هذا الإجهاد، كان الجهد المتواصل الذي يبذله لم يمنعه من مواجهة المسؤولية عن أسرته ومهامه المهنية، بل أصبح يدور في دوامة من العمل لا ينتهي.

لكن رغم كل هذا، لم يكن جدكم نعمان يواجه التحديات بمفرده. كان السند القوي بجانبه هو الجدة سلمى. كانت الرفيقة المثابرة، التي تقدم له الدعم في كل خطوة. لم تُبدِ أي اعتراض أو تذمر على مشقة الحياة، بل كانت في كل لحظة من اللحظات تُشعره بأنه ليس وحيدًا في محنته. كانت بمثابة الركيزة التي ترتكز عليها عائلة بأكملها، فتغنيها حنانًا وتقديرًا.

في كل مساء، وفي الوقت الذي يعود فيه جدكم إلى المنزل منهكًا تمامًا من يوم طويلٍ مفعمٍ بالجهد والعمل الشاق، كانت الجدة سلمى تنتظره. رغم تعبها، إلا أن لديها الوقت والطاقة الكافية للاهتمام به وبراحته. كان منزلهما البسيط يتحوّل بفضل حنانها إلى ملاذ آمن يحتضن التعب ويرسم الابتسامة على وجهه. وعندما يدخل المنزل، تستقبله بابتسامة دافئة، وتنادي عليه لتطمئن عليه بعد يومٍ طويل. وكانت دائمًا تطلب منه أن يجلس لتهتم بتفاصيله: "هل ترغب في شيء ساخن؟" تسأله برفق، ثم تسعى لتحضير طعامه المفضل بعناية بالغة، مع كلمات تطمئن عليه وتحفزه: "أنت عملت الكثير اليوم، الله يعطيك الصحة والبركة."

كان وجهها الهادئ وأياديها اللطيفة هي الراحة الحقيقية التي ينشدها في كل ليلة مرهقة، فكانت تسانده من دون أن تُظهِر همومها الخاصة أو تعبها. كانت جوًا من الهدوء الذي يعيد له توازنه بعد التعب الشديد. وتبعًا لذلك، ليس الغريب أنها كانت تملأ بيته بمشاعر الراحة والأمان. بل هي أثبتت لأجيال العائلة لاحقًا أن العطاء بلا مقابل هو سر الحب الذي يبني العائلات المتماسكة.

وفي إحدى الليالي، بعد يوم طويل من العمل، اقترب من الجدة وقال بتعب ظاهر: "إنني لا أستطيع الاستمرار بهذا الشكل، الحياة أصبحت أكثر قسوة." لكن الجدة سلمى ردت بابتسامة حانية وقالت له: "ليس شاقًا عليّ أن أساندك يا نعمان، نحن معًا، دوماً نتقاسم الهم والفرح كما كانت قلوبنا دوماً. مهما كان الأمر، سأسندك."

ثم تذكر الأب ابتسامة عميقة وهو يتابع قائلاً: "كانت الجدة سلمى لا تقتصر مساعدتها على زوجها وحسب، بل على جميع أفراد العائلة. جاء في يوم من الأيام أخو جدكم، رامي، ليُخبر سلمى أنهم في حاجة إلى مكان للعيش؛ منزل صغير يليق بعائلة جديدة. كان وضعهم المالي محدودًا، وكان المنزل الذي يملكونه غير مكتمل من ناحية البنية. مع ذلك، لم تتردد الجدة سلمى في اتخاذ قرار جريء."

طلبت الجدة سلمى من جدكم نعمان أن يسمح لرامي وزوجته بالإقامة في جناح منزلهما. وبدلاً من الاستمرار في العيش في المنزل، قررت أن تمنحهما بيتها بكل طيبة قلب، وأن تنتقل هي وزوجها إلى مسكن غير مكتمل البناء كانا بصدد تشييده ليصبح منزلًا دائمًا لهما. "سعادتهم أولى من أي شيء"،

قالت الجدة سلمى، مؤكدة أن توفير الراحة لرامي وزوجته في بداية حياتهما الزوجية كان أكثر أهمية من أي صعوبات قد يواجهونها في سبيل تحقيق ذلك.

بناءً على ذلك، قرر الجد نعمان والجدة سلمى أن ينقلا إلى المسكن الذي كان في مرحلة الإنشاء، رغم أنه لم يكن مكتملًا بعد. البيت كان يحتوي على الكثير من الأشغال المنجزة، ولكنه كان يفتقر إلى الكثير من التفاصيل الضرورية، كالنوافذ والدرج المؤدي للطابق العلوي. ورغم تلك الظروف الصعبة، لم يكن الجهد المبذول لإتمام المسكن جزءًا من حديثهم، لأن هدفهم الأسمى كان توفير السعادة والراحة لعائلتهم. كان حبهم الكبير واهتمامهم بعائلتهم هو المحرك الأساسي لكل قراراتهم. بالنسبة لهم، كان هذا البيت غير المكتمل أكثر من مجرد مكان للسكن؛ كان رمزا لروح العطاء المستمر، وبداية جديدة لمزيد من المحبة والتضحية.

قرار الجدة سلمى لم يكن مجرد قرار يتعلق بالمسكن أو تغيير المكان، بل كان تعبيرًا حيًا عن مبدأ العطاء الذي كانت تنبض به روحها طوال حياتها. لم تكن تهتم في تلك اللحظة براحتها أو بمصالحها الشخصية. بل على العكس، كانت دائمًا تضع مصلحة العائلة أمام كل شيء، تفكيرها الوحيد كان منصبًا على راحة أفراد أسرتها وسعادتهم. كل ما فكرت فيه هو كيف يمكن لها أن توفر لهم بيئة مليئة بالحب والدعم، كيف تجعل كل فرد في العائلة يشعر بأن منزله ليس مجرد جدران وسقف، بل هو وطن حقيقي، مليء بالدفء والأمان.

كانت تعرف تمامًا أن العائلة هي المكان الذي يمكن لكل فرد فيها أن ينعم بالحب والمواساة، وكان لديها اليقين الكامل أن العطاء بلا حدود هو السبيل لبناء أواصر رابطة غير قابلة للانكسار بين أفراد العائلة. بالنسبة لها، كان الجهد المبذول في توفير مكان لإقامة رامي وزوجته جزءًا من واجبها العاطفي والإنساني تجاه من تحب، حيث كانت تضع راحتهم وسعادتهم فوق كل اعتبار.

لقد جعلت سلمى من هذا الفعل نموذجًا للعطاء غير المشروط الذي لا يقتصر على الأشياء المادية فقط، بل يمتد ليشمل الدعم النفسي والعاطفي، ليكون كل فرد في العائلة مدعومًا في حياته، ويشعر وكأن العائلة هي حصن منيع يحميه في الأوقات الصعبة.

قال الأب مستمرًا في حديثه، وهو ينظر في عيون أبنائه: "وقد علمنا منها درسًا كبيرًا؛ أن الحب في العائلة ليس شيئًا عابرًا، بل هو تماسك وأفعال يومية تجعلنا نتجاوز أي تحديات. مع أنها كانت تقدم وتضحي بكل شيء، إلا أن الحب الذي منحته لزوجها ولجميع أفراد العائلة كان حبًا خاليًا من الشروط. كانت تعطينا دروسًا في الحب الكبير، وفي العطاء المستمر."

نظر الأب إلى أبنائه وقال مبتسمًا: "والآن، هل تتصورون حقًا كيف كانت شخصية جدتكم سلمى؟ هل هناك شيء يمكن أن يعكس شخصيتها أكثر من تلك الأفعال التي كانت تدل على حب لا مشروط؟"

أجاب الابن سمير وهو يتأمل: "رغم أننا لم نعرف الجدة سلمى بشكل مباشر، إلا أن قصصها ترافقنا في حياتنا. كان لديها نوع خاص من الحب، حب لا يطلب شيئًا في المقابل سوى راحة وطمأنينة الآخرين. برغم غيابها، شعرنا دائمًا بأنها موجودة هنا بيننا."

قالت دنيا بابتسامة عميقة: "كانت معلمة حقيقية لنا في الحياة. فكرتي عن جدتي سلمى أنها كانت تضع عائلة الجميع في مقدمة أولوياتها. حتى في أصعب اللحظات، كان قلبها أكبر من كل الصعاب."

أما صفاء، التي لم تعاصر الجدّة، فقد اكتفت بابتسامة عميقة قائلة: "من خلال ما سمعت منكم، يبدو أن جدتكم كانت علامة فارقة في حياتنا، وكانت تزرع الحب أينما ذهبت."

نظر الأب إلى أولاده مبتسمًا بعينين مليئتين بالفخر، وقال: "نعم، كانت الجدة سلمى بالفعل الأم الحقيقية والمُعلّم الأكبر لنا في دروس الحب والعطاء بلا حدود. تعلمنا منها كيف يمكن لشخص واحد أن يحمل في قلبه كل هذا الكم الهائل من المحبة، كيف يمكن أن يتجاوز المعوقات من أجل رفعة الآخرين، وكيف يمكن أن تمنح الحياة دون أن تتوقع شيئًا في المقابل. لقد كانت مصدرًا للإلهام

والحنان، وتقديماتها لم تكن مادية فحسب، بل كانت أيضًا روحًا وقوة تحرك وتلهم الجميع من حولها."

ثم تابع الأب، وهو ينظر إلى أبنائه بحب وعمق: "والآن، أيها الأبناء الأعزاء، لنستمر على دربها ونسير في طريقها. لنحمل كلًا منا الشعلة التي أضاءتها هذه الروح العظيمة، ولا ننسى أبدًا أن العائلة لا تكتمل وتظل صامدة إلا بحبّنا المتبادل، وبعطاءنا الذي لا يقاس ولا يعرف الحساب. كم من مرة كنا بحاجة ليد تساعدنا، أو كلمة تشجعنا، أو حضن يخفف عنا الأعباء؟ هذه هي القيم التي نقلتها لنا الجدة سلمى، ولن يكون هناك أكبر من هذا الإنجاز في حياتنا. لنحتفظ بهذه الذكريات الغالية في قلوبنا ونمضي بها في كل خطواتنا."

استرسل الجميع في الصمت قليلاً، متمتعين بأثر الكلمات التي تركتها أفعال الجدة سلمى في قلوبهم. كانت كلماته معطرة بحبٍ عميق وحنين، وكأنها جعلتهم يرون كل تفاصيل حياتها أمام أعينهم. جلسوا هناك، غارقين في أفكارهم، يسترجعون كل قصة وكل موقف يحكي عن التضحية والكرم اللامحدود، التي كانت الجدة سلمى تتحلى بها.

ابتسم الأب بلطف وهو يرى صمتهم، ذلك الصمت الذي يخبره بكل شيء. كان يعلم أن كل واحد منهم يحمل في قلبه الآن صورة لجدتهم، ليس فقط من خلال القصص التي سمعوها، بل من خلال مشاعرهم التي استيقظت، وكأنهم عرفوا الجدة سلمى عن كثب. فكل واحد منهم فهم الآن أن الحب لا يقتصر على الكلمات، وأن العائلة الحقيقية هي تلك التي يتجاوز أفرادها جميع الصعوبات من أجل العيش معًا في محبة وتعاون.

في ذلك الصمت كان هناك نوع من التأمل العميق. كان كل من الأبناء يحملون دروسًا لا تقدر بثمن في أعماقهم. بدأ سمير يتأمل في الدور الكبير الذي لعبته الجدة سلمى في تأسيس فكرة العائلة بالنسبة لهم؛ كانت هي المسؤولة عن إنشاء بيئة دافئة تملؤها المحبة، تجعل أي صعوبة تبدو قابلة للتجاوز. بينما كانت دنيا تتفكر في الأفعال الطيبة، وكانت تفكر كيف كانت تلك اللحظات العفوية

التي تقدم فيها الجدة سلمى لأفراد العائلة لا تنطوي على اهتمام بنفسها، بل بالعائلة كوحدة، وكيف يمكن أن تكون التضحية بوعي تمامًا بأنها لن تنتظر شيئًا في المقابل.

أما صفاء، التي كانت دائمًا تتمتع بحساسية عاطفية عالية، فقد كانت عيونها قد غارقتا في الذكريات، تبثها تلك الصور الطيبة التي كانت تحيا فيها الجدة. وقد فاجأتهم حين قالت بابتسامة تملؤها الدفء: "الجدة سلمى كانت تكتب لأبناء الجيل القادم دون أن تعلم. لم نرها، ولكنها تركت فينا جميعًا كتابًا مفتوحًا نقرأه في تصرفاتنا وحياتنا اليومية. ونحن، إن كنا نقدر على إكمال هذه المسيرة من العطاء، نكون قد فهمنا الرسالة العميقة التي تركتها لنا."

رغم الصمت الذي ساد الغرفة، كانت تلك اللحظات هي البداية لحوار داخلي عميق يحيا في قلب كل منهم، يشعرون بنوع من التقدير اللامتناهي للذي قدمته لهم الجدة سلمى.

الفصل الرابع عشر

"وعد الأم الذي دام طوال العمر"

في أحد الأمسيات الهادئة، التي كانت تجمع الأب مع أبنائه حول نار هادئة في زاوية منزلهم، جلس الأب مسترجعًا ذكرياته القديمة، وتلفتت أنظار الجميع نحو وجنتيه المضيئتين بحنين غير مرئي. كان كل منهم يشعر وكأنهم كانوا ينتظرون أن تبحر الكلمات في بحر الماضي، ليكتشفوا أسرارًا قديمة لا يعرفون عنها سوى اللمحات القليلة التي قصها عليهم مراتٍ ومرات.

وفجأة، نظر الأب إليهم بعينيه المليئتين بحنان وشوق، وابتسم ابتسامة مشبعة بالعاطفة، نظروا إليه جميعًا بترقب، وحواجبهم مشدودة في انتظار أن ينبثق من فمه ما يرويهم عن أيام طفولته البعيدة، التي عاش فيها حكايات الطفولة وأحلامها البريئة، وأيضًا آلاماً تركت بصمتها في ذاكرته بشكلٍ لا يمحى. كانت أيامه التي أمضى فيها أعوامًا قليله وهو طفلاً تحت عناية وحنان والدته، سلمى، والمرأة التي كانت تشع حبًّا بكل خطوة تخطوها، هي القصص التي أثارت فيهم فضولًا جامحًا. تذكروا محطات حياته المختلفة التي مرّت بأحداث كبيرة، لكنه بدأ يلاحظ أن هناك نقطة في قصته لم يتمكن أحد من إدراك سرّها بعد.

نظر الأب إليهم وقال بصوتٍ مرتجف كأنما يغمس الكلمات في عمق مشاعره: "الليلة، سأحدثكم عن بعض اللحظات التي عشتها وأنا طفل صغير... لحظات سأظل أحتفظ بها إلى الأبد في قلبي. تلك الأيام التي كنت فيها في حضن أمي، وجدواها، قلبها الطيب الذي علمنا معنى العطاء والوفاء، وما زالت عيونها أمامي حتى في أكثر لحظات انكساري." توقفت كلماته لحظة، فجميعهم كانوا على أطراف مقاعدهم، شعور عميق ملأ المكان. كانوا يدركون أنهم على وشك أن يتكشف أمامهم حدثٌ مهم، تاريخ غير مكتمل، كان كل واحد منهم يرغب في اكتشافه.

واستطرد الأب في حديثه قائلاً: "كنتُ دائمًا في ذهني صورة أمي، وأنا طفلٌ صغير تحبني وتحملني بعينيها وتربي لي حلمي وتغمرني بحضنها الدافئ. لم تكن تلك مجرد طفولة عابرة، بل كانت لحظات

تملأها الأمان والسكينة... لكنني لا أستطيع نسيان تلك اللحظات الأخيرة التي أودعتها الحياة في أحشائها، وهي تغادرني تاركة تلك الكلمات الوحيدة في ذهني؛ وعد لم تكتمل كلماته، وعد ظننت أنه سيكون حلاً لكل ما أعيشه اليوم."

توقف الأب لبرهة وكأن الكلمات حُبست في حلقه، لكنه استجمع شجاعته وواصل: "أما الآن، ففي قلب كل واحد منكم، أرى أثر تلك الأم التي منحتني الحب في أيام قلبي الطري، وأنا أبالي بهذه القصص الطويلة عن والدتي التي كانت في كُل لحظة، والآن في غيابها، تضجّ الذكرى. وكأنني أراها الآن، وفي داخلي وفي داخلكم، لن ننساها أبداً."

وقد كانت شام، بملامحها التي دائمًا ما تطغى عليها ملامح الرقة، هي التي بدأت الحديث وقالت بصوتٍ حالم يشوبه شعور بالوجع، "أبي، لم تخبرنا عن آخر يوم رأيت فيه والدتك، هل كان هناك شيء مختلف في ذلك اليوم؟" ثم نظرت إلى باقي الإخوة وأضافت بنبرة أنين مختبئ: "أعتقد أن الجميع هنا يحتاج لمعرفة الحقيقة."

سكت الأب للحظة طويلة، وهو يرفع نظره نحو السماء كما لو كان يسترجع تفاصيل ذلك اليوم الذي ظل عالقًا في قلبه طوال سنواته الماضية. كانت أنفاسه تملأ الغرفة بالسكون الثقيل، وعينيه تغرقان في بحر الذكريات التي ظن أنها باتت مدفونة بمرور الزمن، لكن اليوم خرجت من الأعماق ليحكيها لأبنائه. عندما أكمل حديثه، كان صوته خافتًا وحزينًا، يعبر عن أوجاعٍ خفية يخبئها منذ زمن طويل.

"كنت في الخامسة فقط، في ذلك اليوم كان كل شيء عادياً، حتى اللحظة التي لم أكن أتوقع فيها شيئاً غير اعتيادي. أمي، كما في كل يوم، كانت تأتي إليَّ وتعد لي حقيبتي المدرسية بعينيها اللتين تسحرانني بالحنان، ذلك الصباح شعرت بشيء عميق في قلبي، شعرت بأن هناك شيئًا مفقودًا، شيئًا يتغير في الهواء. لم يكن شعوري مثل أي يوم آخر، كان عجزًا غريبًا، كأن الحزن يثقل الأرض."

وقف الأب قليلاً، كأن الذكرى أغرقته في عالم بعيد. كانت عيناه مغرقتين بالدموع التي لم يستطع كبحها تمامًا، ولاذ صوته بالكثير من الصمت قبل أن يواصل حديثه. "وفي ذلك اليوم، لم أكن أعلم

أنه سيكون آخر يوم، وأنها كانت على وشك أن تتركنا. رفعت عيني، ورأيتها جالسة على كرسيها المعتاد، تتأمل الصحيفة... كانت يديها تتحركان بلطف في أعمالها اليومية، وصوت الماء يهمس في الخلفية، كما لو أن كل شيء سيكون على ما يرام."

ثم نظر إلى أبنائه، وحدّق في عيونهم العميقة كأنه يتصفح صورًا من الزمن الماضي، وحين التفت إليهم، قال بصوت يكاد يخفى الألم: "لكن في تلك اللحظة، شعرت بشيء في داخلي لا يمكن تفسيره، كان حنينًا يلتف حول قلبي مع قشعريرة، كأن شيئًا كبيرًا سيحدث في حياتي ولن يكون الأمر كما كان أبدًا. وقفت أمامها وأنا أسألها، بصوت غير مستقر: 'أمي، هل ستذهبين اليوم؟' وفي عينيها لمعة حزن جعلتني أُفاجَأ لأنها لم تقل لي شيئًا غير 'نعم، سأذهب للمستشفى لأستقبل أخًا جديدًا لك، لكن لا تخف، سأعود إليك قريبًا.'"

وأشار الأب إلى المسافة التي كانت تفصل بينه وبين كلمات والدته الأخيرة. ثم تابع بنبرة بائسة، ولكن على الرغم من مرارتها كانت هادئة جدًا: "وبينما كانت تبتسم، شعرت برغبة غريبة في تمسك بها، بألا تذهب. ربما كان فهمي الطفولي يقول لي، ربما كانت هذه اللحظة الأخيرة لي معها. ثم قلتُ لها، وكأن قلبي لا يستطيع أن يتحمل: 'أريدك هنا، يا أمي، عندما أعود من الروضة. أريدك في المنزل كما كنت دائمًا. أرجوك، لا تذهبي.'"

توقف الأب، وعيناه مليئة بتلك الحيرة التي نشأت نتيجة مرور الأيام الطويلة. وأضاف بحزن عميق: "لكنها كانت تبسم وقالت لي: 'حسنًا، أعدك.'" لم أعرف يومها أنها ستكون الكلمة الأخيرة التي سأسمعها، وعدُ أمي الذي لم تقدر أن تفي به. وبينما كنت صغيرًا جدًا، حملت ذلك الوعد وأخذته معي طوال سنوات طويلة. إلا أنني، وعلى مر الأعوام، لم أكن أجدها تعود كما وعدت."

رفع الأب رأسه عن الذكرى، وقابل نظرات أبنائه التي غرق فيها الحزن، وتخللت صمتًا مشتركًا.

قالت شام بصوت منخفض، "أبي، لقد كنت صغيرًا جدًا... لماذا لم يخبروك أن والدتك لم تعد؟"

أجاب الأب بلطف، متألمًا: "ظنوا أنه سيكون صعبًا علي تحمل الحقيقة. لذلك أخبروني أنها سافرت. في البداية تصورت أنها ستكون رحلة طويلة، ولكني انتظرتها سنوات طويلة..وتخيلت أنني سأراها تعود في أي لحظة."

دنيا، تلك الهادئة، قالت بنبرة خافتة: "ولكنك كنت تنتظرها... كيف كنت تعيش طوال تلك السنوات؟"

ضحك الأب على مضض، وكانت ضحكته تحمل بين ثناياها أكثر من معنى. كان هناك حزن عميق وشجنٌ خفي يتسرب إلى نبراته وهو يتذكر الأيام التي قضاها ينتظر. "كنت أحيا على وعدها، ذلك الوعد الذي زرعته في أعماقي كطفل صغير لا يعرف كيف ينتظر الزمن. كل يوم كنت أسأل نفسي: أين أمي؟ وفي عقلي كنت أتخيلها في مكان بعيد جدًا، أتخيل ماذا قد تكون تفعل الآن؟ هل هي في مكان أفضل؟ هل تفكر فيَّ كما كنت أفكر فيها؟"

وأضاف، وهو يتنهد: "كانت كلماتها تلك تتردد في أذني دائمًا، وكلما مر يومٌ، كانت تلك الكلمات تظل على قلبي كالبلسم الذي يخفف الألم، رغم أنني كنت أعلم في أعماقي أن ذلك الوعد لن يتحقق أبدًا."

ثم سكت الأب للحظة طويلة، كما لو أنه كان يستعرض أمام عينيه جميع سنوات الانتظار والشوق. رفع عينيه إلى أبنائه وقال: "لكنني هنا الآن، بينكم. وهذه اللحظة هي ما يهم. رغم أن وعدها بقي معي طوال هذه السنين، إلا أنني تعلمت أن الحياة تستمر، وحتى الوعد الذي تركته، كان يحمل بداخله شعورًا عميقًا بالحب والذكريات. ذكريات كانت تغذي قلبي وتجعلني مستمرًا في العيش على الرغم من كل شيء."

وأخذ نفسًا عميقًا، ثم ابتسم بابتسامة مشبعة بالألم والأمل في ذات الوقت: "اليوم، هذا ما يعنيني. أنني هنا معكم، لا حاجة لي بعد الآن في الانتظار؛ فقد جئت إلى أعيش هذا الحاضر، معكم، وفي عيونكم رأيت الحياة التي كانت تملأ قلبي بالأمل."

وضعت صفاء يدها على قلبها، وكأنها تعبر عن الألم الذي كانت تشعر به نيابة عن والدها. بنبرة حزن عميق، قالت بصوت خافت، "آه، أبي، أنت عشت حياتك كلها تحمل ذلك الوعد في قلبك، الوعد الذي لم يتم الوفاء به، وبالرغم من ذلك ظللت تحافظ على أملٍ لم يخذلك يومًا. لكن اليوم... نحن هنا معك، في كل لحظة، في كل خطوة، سنبقى. نحن الآن عائلتك، ونحن لن نتركك أبدًا."

ابتسم الأب ابتسامة مرت فيها الكثير من المشاعر؛ ابتسامة تجمع بين الألم القديم والراحة التي وجدها الآن في وجود أحبائه. كانت تلك الابتسامة تقول الكثير عن عاطفته المخبأة بين كلمات قليلة، وعينيه اللتين كانت تفيض بالدموع رغم محاولته إخفاءها. كان يدرك أن الزمن قد مر وأن ما فات لا يمكنه العودة، لكنه كذلك علم أن قلبه يجد الأمل الآن في أيدي أبنائه، الذين حملوا معه ذكرياته وآلامه، وضحكهم حكاياته وقصصه.

قرر الأب أن السكوت هو أفضل تعبير يمكنه تقديمه. فقد كان ذلك الصمت أصدق من أي كلمات، يحمل في طياته التاريخ الطويل من الحزن والأمل، من الضياع والعودة، ويشكل لحظة وداع مؤقت لتلك الذكريات التي لم تزل حية في قلبه.

ملأت الغرفة لحظة من الصمت المليء بالحنين، كان شبيهًا بصوت البحر الهادئ بعد العاصفة؛ هدوء يليق بالروح بعد معركة طويلة مع الذكريات. لكن هذا الصمت لم يكن محض ألم أو حزن؛ كان كذلك محملاً بالإحساس العميق بالأمان والمحبة التي نمت عبر الأجيال، وأثرت في الأبناء الذين حملوا بحبهم قصة والدهم وألمه، وأصبحوا هم الأمان الذي كان يبحث عنه طوال تلك السنين.

الفصل الخامس عشر

"الجدة ضحى: قلوب لا تعرف الحدود"

في مساءٍ آخر، كانت العائلة تجتمع حول الأب بعد يوم طويل. نظر إليهم بابتسامة مليئة بالحنين وقال، "لقد كانت جدتكم ضحى، ولا تزال، مثالًا حيًا للتضحية والحب اللامحدود. قصتها، حتى في الوقت الحاضر، تستحق أن نرويها لأنها جزء من تاريخنا الذي نعتز به." ثم نظر إلى أبنائه وأضاف، "دعوني أخبركم عن جدتكم ضحى، أخت جدتكم سلمى."

تابع الأب كلامه وهو يغمره الحزن والاحترام: "الجدة ضحى امرأة طيبة القلب، وعميقة الشعور بالعائلة. ضحت كثيرًا منذ أن كانت شابة، وحتى بعد وفاة الجد نعمان، تصر على أن بيتها يظل مفتوحًا لكل أفراد العائلة، بدون استثناء. هي لا تنسى أبدًا الجهود التي بذلها الجد نعمان ولا تتوقف عن إحياء ذكراه في كل فرصة." وأكمل قائلاً: "وعلى الرغم من كل ما مرت به، تبقى وفية لنذرها، فتدعو الجميع كل فترة من أجل تناول وجبة جماعية لإحياء ذكرى الجد نعمان وتذكيرنا دائمًا بأهمية العائلة."

ثم أضاف الأب بابتسامة لطيفة، وهي تعكس مشاعر اعتزاز وتقدير عميق: "الجدة ضحى، ورغم كل ما تحملت من أعباء الحياة الثقيلة، ورغم التضحيات التي قدمتها على مر السنين، لم تكن فقط زوجة لجدكم نعمان، بل هي أمًا حقيقية لنا جميعًا.

كانت تدير منزلها بشجاعة، ودمجت بين مهامها العديدة بحب وحكمة. كانت دائمًا تشعر بنا كأننا أولادها تمامًا، وكانت تلبي احتياجاتنا بكل صدق وحنان. سواء كنا نحتاج إلى من يطمئن قلبنا في أوقات الحزن، أو من يلهمنا في أوقات الضعف، كانت، وما زالت دائمًا هناك، كأنها الضوء الذي يهدينا في الظلام. لم يكن قلبها يومًا يميز بين أحدنا، فلا كان هنالك فرق في كيفية معاملة ابنها أو أبناء أختها، جدتكم ضحى تضم الجميع في قلب واحد، وتمد يدها للجميع بلا حدود."

وأشار الأب مع إشراقة في عينيه وهو يراقب أبناءه، " تذكّرنا دومًا بأن العائلة هي الأولوية الكبرى. وأن المحبة لا تُحسب برباط الدم فقط، بل في العمل المستمر من أجل بناء علاقات من العطاء والمثابرة. العائلة، كما تقول دائمًا، هي الركيزة التي نعود إليها، وهي التي تمنحنا القوة في أصعب الأوقات. الجدة ضحى تعتبر أن سعادتنا هي الأولى، وأن وفاءها لنا، بما في ذلك تقديم العون في

الأوقات الصعبة، هو أعظم ما يمكن أن تقدمه. حياتها برغم متاعبها في العمل والدور الجاد الذي تقوم به، تعبيرًا عن حب لا يُحد، وأثر لا ينقضي."

نظر الأب إلى أبنائه وقال بلطف: "وتذكروا دائمًا كيف أن الجدة ضحى قدوة لنا في العطاء والصبر. لا يوجد لديها أدنى تردد في أن تجعل بيتها ملاذًا للجميع. هي أمًا ثانية لنا، ليس بموجب الروابط البيولوجية فقط، بل بحبها الذي هو أعمق من أي رابط."

ابتسم الأب وقال، "الا تلاحظون يا ابنائي كيف دائمًا تسعدنا كلما جئنا إلى بيتها، وكأنها لا تريد أن تترك الفرصة تمر دون أن تجمعنا على طاولة واحدة، ربما لتذكيرنا بأن العائلة هي ساحة العطاء والمحبة، وأن اللحظات المشتركة هي أكثر ما يربطنا ببعضنا. هي تحرص على أن تكون هذه اللحظات مليئة بالدفء والراحة، لا يُشغلها شيء عن رؤيتنا سعداء ومتجمعين. وكأنها تجعل من كل وجبة طعام لحظة خاصة لتجديد ارتباطنا كعائلة واحدة، هو نوع من الفهم العميق لما تعنيه كلمة 'عائلة' بالنسبة لها."

ثم نظر الأب إلى أبنائه بأعين مليئة بالحب والتقدير، وتابع قائلاً: "ومازال هذا النمط مستمرًا حتى اليوم، الجدة ضحى لا تزال تواصل هذا التقليد بأقصى درجات الحب. هي دعتكم هذا الأسبوع أيضًا، لاحتفال جديد على شرف ذكرى الجد نعمان. ولا يكاد يمر أسبوع دون أن تشدد على أهمية تواجدنا في منزلها. هي لا تهتم للأوقات الصعبة، ولا تغلبها مشاغل الحياة. لأن عيونها تظل مشدودة إلى هدف واحد، أن ترى عائلتها متماسكة وقوية. ترى أن العائلة هي أكثر شيء في هذه الحياة، وأننا لا ينبغي أن نتوقف عن التعبير عن محبتنا لبعضنا، مهما اختلفت الظروف."

أضاف الأب بنبرة مليئة بالفخر: "إن ما تقوم به الجدة ليس مجرد تقليد، بل هو حياة؛ حياة مليئة بالعطاء لا تحدها حدود. هي تعلّمنا أن المحبة هي أساس تماسكنا، وأن الوقت الذي نمضيه مع بعضنا لا يقدر بثمن."

لحظات من الصمت طافت في الأجواء بعد كلمات الأب، وكأن كل واحد منهم كان يتأمل في عمق معنى العائلة الذي زرعته الجدة ضحى في قلوبهم. كانت الدموع تغلب بعض العيون، لكن الجميع كان يشعر بذات الشعور الذي يغمرهم دائمًا حينما تكون الجدة ضحى حاضرة بجسدها أو روحها. كان الأبناء جميعهم يشعرون بحجم محبة الجدة لهم ولذكرياتها مع الجد نعمان، ويشعرون في نفس الوقت بالفخر بأنهم جزء من تلك العائلة التي بنيت على أساس التضحية والمحبة.

قال سمير بعينين تملؤهما الفضول والحب: "ولكن يا أبي، كيف تستطيع الجدة ضحى الحفاظ على هذا الزخم من العطاء طوال الوقت؟ رغم كل ما مرت به؟"

ابتسم الأب بحنان وقال: "يا سمير، الجدة ضحى مثل النهر الجاري، لا ينضب. مهما مرت السنوات، ومهما تقدمت السنون، يظل عطاءها كالماء الذي لا يجف. وهذه الروح هي التي تزرع فينا القيم وتعلمنا أن الحياة تستحق أن نحب وأن نعطي دون انتظار مقابل."

نظرت دنيا وقالت: "الجدة ضحى هي نموذج لنا جميعًا. أشعر أن الحب الذي تغمرنا به مستمر فينا وفي أفعالنا. أشكرها لأننا نتعلم منها الكثير، وأنا متأكد أننا سنحمل درسها دائمًا في قلوبنا."

ثم أضافت صفاء بصوتٍ مليء بالإحساس: "رحم الله الجد نعمان، ودائمًا ما أرى في الجدة ضحى أشعة نوره. ونحن أيضًا على العهد، أن نحب ونحترم هذه العائلة كما علمتنا الجدة."

ابتسم الأب، وابتسمت معه الوجوه التي حوله، وكان ذلك الابتسام كأشعة الشمس التي تبعث الدفء في القلوب. نظر إلى أبنائه نظرة مليئة بالأمل وقال بصوت هادئ لكنه مليء بالتقدير: "مهمتنا اليوم أن نواصل هذا الدرب الذي بدأه الجد نعمان مع الجدة ضحى. بأن تبقى العائلة على قلب واحد، تُحيي الذكريات وتظل تتنفس في إيقاع مستمر من العطاء والحب. فهي الدروس التي علمونا إياها، وأنتُمْ الأمل الذي يضمن لها الاستمرار."

ثم نظر الأب إلى صور الجدة ضحى على الحائط، وصورة الجد نعمان حيث كان ذلك الثنائي يُضيء حياة العائلة. أضاف قائلاً: "علينا أن نحرص دائمًا على أن تكون قلوبنا كقلوب جدتكم، قلبًا مفتوحًا للجميع، وقلبًا ينبض بالحياة. فهي لم تأبه للحياة التي مرت بها، بل لم تبخل أبدًا بحبها وعطائها لأجل العائلة. أطال الله بعمرها، لأن ذلك هو ما يجعلنا مستمرين في هذا الدرب الجميل."

في هذه اللحظة، ارتفعت قلوب الأبناء مع كلام أبيهم، وكل منهم حمل تلك الكلمات في قلبه، مع عزم قوي أن يكونوا دائمًا امتدادًا لذلك الحب اللامحدود الذي زرعته الجدة ضحى في أرواحهم.

الفصل السادس عشر

"شظايا الحكمة: إرث الأجيال ودرس الحياة"

في إحدى الأمسيات الباردة، جلس الأب مع أولاده حول الموقد الدافئ، وهو يلمس الخشب برفق وكأن كل قطعة فيه تحمل جزءًا من قصة الماضي. عيونه تلمع بألمعية الذاكرة بينما يتابع بشكل عميق احتراق الخشب على النار.

"اليوم، سأقصّ عليكم قصة من جيلٍ مضى، عن جدكم نعمان كان يحظى بشيء مميز من الشخصيات التي شكلت أساس حياته. كان جدكم يراقب عمه فريد، مختار القرية، بإعجاب شديد. عمه كان يجمع الناس من حوله بسمعته العظيمة وحكمته اللامحدودة. كان يتمتع بقدرة فريدة على حل أي نزاع. كانت كل كلمة من فمه تحمل معنى، حيث كانت الناس تأتي إليه في أوقات الشدائد، معتقدين أن كلماته ستعيد السلام إلى قلوبهم."

تراوحت مشاعر الأب بين الفخر والإعجاب، مع لحظات خافتة من التقدير الكبير لعلاقة جده بعمه. كلما تحدث عن جده فريد، كلما شعر بعمق تأثيره في تشكيل شخصية ابيه نعمان.

دنيا: "ولكن، كيف كانت علاقته مع الناس يا أبي؟ وهل كان لديه لحظات ضعف؟"

الأب: ينظر إلى النار، ويشعر بالأفكار تتحرك في قلبه، ثم يجيب بصوت منخفض: "أحيانًا، كان يظهر في عيون عمه فريد شعور عميق بالتعب، لكن ذلك لم يثنِه عن مواصلة رسالته. كان يظهر للعالم الحكمة مهما كانت التحديات. كان عمه دائمًا يرى أن الحكمة لا تأتي إلا بتجربة الحياة الصعبة."

انتبه الجميع جيدًا إلى حركات الأب، كل واحد منهم يعلق في ذهنه تفاصيل حكمة ذلك الجيل.

سأل سمير وهو مبتسمًا، يعيد النظر في كلام والده بدهشة: "هل فعل مثل عمه؟ هل بدأ بسماع أطراف المشكلة بنفس الطريقة؟"

الأب: "نعم، فعل. في إحدى الأوقات كانت هناك خلافات شديدة بين عائلتين على قطعة أرض كانت مفقودة فيما بينهما. عندها قرر جدكم أن يتحمل مسؤوليته كمحكم. تذكر دائمًا كلمات عمه: 'النزاع لا يُحل إلا بالحوار، والكلمات الطيبة'. وفعلاً، بدأ بجلسة مشتعلة بالكلمات المتضادة، ثم سعى لتوجيه قلوبهم إلى الطريق السليم."

شام: تبدو مشاعرها متأثرة بينما تتخيل الوضع قالت: "كان جدنا يتعلم حل النزاعات بكل تلك الطريقة الصارمة؟"

الأب: "نعم، وكان يتعلم في كل جلسة، كيف أن القدرة على الإصغاء أكثر من مجرد فن، بل هي وسيلة حقيقية لجعل الجميع يشعرون بالقيمة. علمه عمه كيف تُنبت العقول المحترمة من خلال احترام مشاعر الآخرين."

صفاء: "هل تغيرت حياته بعد أن تعلم تلك الحكمة؟ هل أصبح اتخاذ القرارات أسهل بالنسبة له؟"

الأب: "في البداية، كان هناك شعور بالشك، حتى مع كل تلك الحكمة التي تعلمها، كان يستشعر الضغوط التي يحملها. ليكن صريحًا، القيادة تضع الإنسان أمام صراع داخلي. لكن لا شيء يأتي بدون تجربة، والشخص الذي ينجح في قيادته هو من يحمل تلك الشكوك ويديرها بحكمة."

سمير: "ومن أين كان يجد القوة لتخطي هذه اللحظات؟"

الأب: "كان يعثر على قوته في تلك اللحظات التي يعود فيها إلى مبادئه الأولى. كان يأخذ وقتًا ليوازن تفكيره ويشاور ذوي الخبرة. في النهاية، أصبح يشعر بأن القوة الحقيقية تكمن في التواضع وعمق الاستماع."

صفاء: "إذن، هذا هو سر استمراريته. كيف نجح في التعلم عبر الأجيال؟"

الأب: "نعم، هذا هو لب القصة. إرث الحكم والمشاعر الإيجابية لا يُبنى بالكلمات فقط، بل يستمر بحضور الحُب والفهم. هذا الإرث حمله جدي من الجيل الذي قبله، ثم حمله جدكم ومن بعده ابوكم، واليوم يحمله كل منكم."

سمير: (مبتسمًا برقة، وهو يشعر بما تحمله تلك الكلمات من مسؤولية: "أعتقد أن الأجيال الجديدة يمكنها أن تحمل هذا الإرث أيضًا. وبقدر ما نطبق هذه القيم، سنفهم العالم بشكل أعمق."

الأب: بفخر وعيناه تلمعان، هو يعلم تمامًا أنهم قد فهموا جوهر القصة: "تمامًا. سيكون على عاتقكم يا أولادي أن تكونوا مصدر سلام وحكمة في كل مكان تذهبون إليه. تعلموا أن القيادة ليست فقط في اتخاذ القرارات، بل في بناء جسور الفهم والسلام."

الفصل السابع عشر

"مشروع التعليم لغير المتعلمين"

الفصل السابع عشر

"مشروع التعليم لغير المتعلمين"

بينما كان جدكم نعمان يواصل سعيه لتحسين أوضاع قريته المجتمعية وتنميتها، اكتشف مشكلة عميقة كان لها تأثير كبير على تطور المجتمع من حوله. فقد أدرك أن هناك شريحة واسعة من أهالي القرية والمناطق المجاورة الذين لم تتح لهم الفرصة للتعلم في المدارس بسبب ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية. كانوا رجالاً ونساء في أوج حياتهم، ولكنهم لم يتعلموا القراءة والكتابة، مما جعلهم يعزلون عن التغيرات الكبرى التي كانت تحدث في العالم من حولهم.

رغم صغر سنه في ذلك الوقت، كانت فكرة التعليم بالنسبة لجدكم نعمان تمثل الحل الحقيقي للتقدم والتنمية. إذ كان يؤمن أن العلم ليس فقط مفتاحًا للمعرفة، بل هو السلاح الذي يضاهي أقوى الأسلحة في تغيير المجتمعات. من هذه القناعة، بدأ في التخطيط لمشروع طالما حلم به: فتح مدرسة ليلية للكبار. حيث لا يتطلب المشروع أي مقابل مادي، وكان يهدف من خلاله إلى إزالة العوائق التي تحجم نمو أفراد المجتمع.

كان يعلم جيدًا أن هؤلاء الأفراد يقضون أيامهم في العمل الشاق لسد احتياجات أسرهم، ولذلك قرر أن تبدأ المدرسة في ساعات المساء، بحيث تكون ملائمة لاحتياجات الجميع. كانت الفكرة بسيطة، ولكنها ثورية: تعليم القرويين القراءة والكتابة في أوقات فراغهم بعيدًا عن ساعات العمل الطويلة والشاقة.

ورغم أن هذا النظام كان مبتكرًا ويبدو غريبًا للبعض في ذلك الوقت، فقد كان يحمل في طياته معنى عميق. لم يكن هدفه مجرد أن يعلم هؤلاء القرويين بعض الحروف والكلمات، بل كان يطمح إلى تحفيز روح البحث عن المعرفة، ليجعلها جزءًا من حياتهم اليومية. كان يعتنق فكرة أن المعرفة هي سلاح الفرد، وهي الطريقة الوحيدة لتحسين وضعه الاجتماعي والمادي.

لم يكن الأمر مجرد درس أكاديمي في القراءة والكتابة فقط، بل كان مشروعًا اجتماعيًا وثقافيًا، يعيد تشكيل المجتمع بشكل تدريجي. كانت دروسه تتمحور حول تعليم القيم الإنسانية، أهمية الاحترام المتبادل، وكيفية التفكير النقدي. كما حرص أن تكون المواد الدراسية ممتعة ومُلهمة.

كانت الغاية من المدرسة أكثر من تعليم الكلمات، بل تهيئة جيل جديد من القرويين قادرين على تغيير مجريات حياتهم.

أصبح الناس، بالتدريج، يدركون قيمة هذه الفرصة العظيمة. الأطفال والشباب كانوا يذهبون في المساء للصفوف وهم متحمسون، وأصبح لدى الكبار الدافع لإنهاء يومهم الطويل ليحصلوا على جرعة من المعرفة. ومع مرور الأيام، لاحظ الجميع تغيّرًا في مجتمعهم. ازداد الوعي، وتغيرت لغة الحوار، وبدأ الناس يبتكرون طرقًا لتحسين حياتهم ومساعدة بعضهم البعض.

كان قد زرع بذرة، ولا شيء كان بإمكانه إيقاف نمو هذه الشجرة العائلية الكبرى التي ترعرعت في تربة الجهد والتعاون.

عندما بدأ جدكم مشروعه، فوجئ بإقبال جماهيري غير متوقع من أهل القرية. كانت الدعوة مفتوحة لكل من يرغب في تحسين نفسه وتعلم القراءة والكتابة، ولكن ما حدث تخطى توقعاته تمامًا. الرجال والنساء من مختلف الأعمار، الذين اعتادوا على العمل الشاق طوال النهار، بدأوا يتوافدون عليه مع غروب الشمس، مستعدين لبدء الدروس والتعلم بعد يوم طويل من العمل.

هذا الحماس الكبير كان يحمل في طياته أملًا لا يُعبر عنه بالكلمات. أن ترى تلك الوجوه المتعبة تتحول إلى وجوه مشرقة بالفضول والاستعداد لاكتساب المهارات، كان يعني أن شيء ما قد بدأ يتحول في المجتمع. هؤلاء القرويون كانوا يتطلعون إلى تغيير حياتهم، وهم مستعدون للتضحية بالقليل من راحتهم الشخصية ليتعلموا، من أجل غدٍ أفضل لهم ولأسرهم.

وفي تلك اللحظات، بدأ يزداد إيمان جدكم بأن هذا المشروع سيكون له تأثير بعيد المدى. إنه ليس مجرد فرصة للأفراد، بل تغيير اجتماعي. الكبار الذين كانوا يعتقدون أن الزمن قد فات على تعلم شيء جديد بدأوا يشعرون بأن هناك دومًا مكانًا للتطور. ولم تكن فقط الأمية هي التي اختفت، بل بدأت تظهر روح جديدة من التضامن بين أفراد المجتمع. على الرغم من الصعوبات اليومية، كانوا

جميعهم متحدين بهدف واحد: التقدم والتعلم، ليس فقط لأنفسهم، بل ليكونوا قدوة للأجيال القادمة.

كان ذلك النجاح المبكر بمثابة شعاع أمل في قلب القرية، وبدت القرية بشكل أكبر وحدةً متماسكة تحت شعار العلم والعمل معًا.

في الفصل الدراسي، كان جدكم يركز على تقديم الدروس بطرق مبسطة، بحيث تكون متناسبة مع مستوى المتعلمين، وتساعدهم على التغلب على أي عراقيل قد يواجهونها. لم تكن الكُتب صعبة أو معقدة. بدلاً من ذلك، كان يشجعهم على تعلم كيفية قراءة المستندات الأساسية، وكيفية كتابة الرسائل البسيطة.

وبفضل المبادرة، بدأ المشروع ينتشر ليشمل القرى المجاورة أيضًا. كثيرون وصلوا للاعتراف بأن التعليم هو حجر الزاوية الذي يبني للأفراد حياة كريمة. أحد اللحظات البارزة التي لا يمكن نسيانها هي عندما جاء رجل مسن وهو يحمل شهادة تخرج بين يديه، وقال فخورًا لجدكم: "بفضل تعلمي معك، الآن أستطيع قراءة الرسائل التي كنت أخشى حتى الاقتراب منها. ".

كانت هذه الكلمات بالنسبة لجدكم كما أخبرني أشبه بجائزة كبرى، لأن المشروع قد تحول من مجرد فكرة إلى واقع ملموس صنع تغييرات إيجابية حقيقية في حياة الكثيرين. بدأ العمل يلقى تأييدًا وتعاونًا من المؤسسات المحلية والهيئات الخيرية، وسرعان ما بدأ المشروع في التوسع ليشمل أدوات أكثر حداثة ويوفر جوًا تعليميًا أفضل، ولكن يبقى جدكم سلمان متواضعًا، لا يطلب أي مقابل على عطائه غير أن يرى الأثر الإيجابي في قريته.

(يجلس الاب مع أولاده بعد أن انتهى من سرد القصة عن مشروع جدهم نعمان لفتح المدرسة الليلية.)

الاب: "هل فهمتم يا أولادي كيف كانت رؤية جدكم نعمان للمجتمع وكيف بدأ مشروعه التعليمي؟"

دنيا: "مذهل! يعني كان يعتقد أن التعليم هو مفتاح التغيير الحقيقي، ليس فقط في حياة الأفراد، بل في المجتمع كله؟"

الأب: "بالضبط! كان عنده إيمان راسخ بأن الإنسان يحتاج لفرصة لكي تعلم، خاصة عندما تكون الظروف صعبة. كان يقول دائمًا: 'العلم ليس رفاهية، بل هو حق لكل إنسان.' وكان يسعى جاهداً أن يضع هذا في حيّز التنفيذ."

سمير: "كيف كانت ردة فعل أهل القرية لما عرفوا بالمشروع؟ هل كانوا مترددين في البداية؟"

الأب: "في البداية، كان في تردد. كان الناس متعودين على الطريقة القديمة في الحياة، ولم يكونوا متعودين على أن يكون هناك تعليم للكبار. لكن، مع مرور الوقت، وبدأوا ينضمون بشكل أكبر.

صفاء: "كان جدي ذكي جدًا! ولكن كيف استطاعوا أن يتغلبوا على صعوبات الحياة ويتركوا وقتًا للمدرسة؟"

الأب: "كان عندهم عزيمة لا تصدق. تصوروا، كانوا بعد يوم عمل طويل، يعبرون المسافات ويسيرون الليل ليصلوا للمدرسة! كانوا يعتبرون أن ما يقومون به هو ليس مجرد تعلم القراءة، بل هو بناء مستقبلهم ومستقبل أولادهم. وصدقيني، العزيمة والإصرار على التعلم كان أكثر قوة من أي شيء آخر."

دنيا: "أعتقد أن كل واحد فيهم كان يحلم بشيء أكبر. ومن خلال التعليم بدأوا يحققون أحلامهم."

الأب: "نعم، أحسنتِ يا دنيا. كما كان جدكم نعمان يحب أن يقول: 'العقل مثل الأرض، يحتاج لزرع الأمل والعلم لكي يثمر مستقبلاً عظيماً.'"

سمير: "عجيب! إذن نحن جزء من هذا الإرث، صحيح؟ المشروع والتفكير الذي بدأه جدي يظل موجودًا اليوم؟"

الأب: "بالضبط، يا سمير! من خلال مشاريعكم وأفكاركم الآن، أنتم تستمرون في ذات الطريق. دعونا نتحلى بالشجاعة والحكمة، لنستطيع إحداث تغيير حقيقي في المجتمع كما فعل جدكم نعمان."

(كلهم يتبادلون النظرات بابتسامة، وفخر يعلو وجوههم، بعد أن فهموا مدى تأثير التعليم في حياة الأشخاص، وبدأت الدروس التي سمعوها تصبح جزءًا من حياتهم الشخصية.)

الفصل الثامن عشر

"وحدة المحبة"

في ليلة مقمرة من ليالي الصيف، اجتمع أفراد العائلة الكبرى تحت شجرة زيتون عتيقة في باحة منزل الجد يونس. وقف يونس، والد جدكم نعمان، ورفع كأسًا من الشاي إلى شفتيه كأنما يستمد من دفئه قوة الكلمات. عيونه تجولت في الوجوه المحيطة به، وكانت نظراته كأنها تخترق القلوب، فتُضيء ما خفي فيها من مشاعر وذكريات.

ابتسم الجد يونس وقال بصوت هادئ لكن واثق:

"لا أحتاج أن أطلب منكم أن تحبوا أقاربكم، فهذا الشيء يأتي مع ولادتكم. لكن ما أريده منكم، وأذكركم به الآن، هو أن تتذكروا شيئًا واحدًا: الأوقات العصيبة هي المحك الحقيقي للعائلة. المحبة لا تختبر حين تكون الأمور سهلة، بل حين تصبح السماء غائمة والعاصفة قريبة. في تلك اللحظات، يا أحبائي، ستكون محبتكم ودعمكم لبعضكم البعض، مثل جذع هذه الشجرة العتيقة التي تقف شامخة رغم السنين. تذكروا، أن العائلة مثل الأرض، لا تبقى صامدة إلا إذا رويتموها بمحبتكم وصبركم، وأن أزمنة الشدائد لا تفرقكم، بل تجعل روابطكم أقوى.

إن العمل الجماعي، في اللحظات التي تتناثر فيها الأحلام والتطلعات، هو ما سيجعل العائلة تتجاوز الصعاب. لا تنسوا أبدًا أن ما يجمعكم أكبر بكثير من كل شيء قد يفرّق بينكم. تحملوا بعضكم، ساعدوا بعضكم، ولا تتركوا أحدًا يواجه الأيام العاصفة وحيدًا. مثلما تفعل الأشجار عندما تزرع جذورها في الأرض، كل واحد منكم سيصبح جزءًا من ذلك الجذع العظيم، القوي والراسخ، الذي يحمل إرث عائلتنا على مر الأزمان.

فلتكونوا مثل الشجرة التي تنمو في صمت، تأخذ ما تحتاجه من الأرض، وتنمو وتزدهر، ولا تهزمها الرياح مهما كانت شديدة. واذكروا دائمًا أن العائلة هي قلب كل شيء، وفي آخر المطاف، سنكون جميعًا قد أصبحنا جزءًا من نفس الجذور التي تغذي هذه الشجرة، التي تبقى ثابتة بالرغم من كل المتغيرات."

توقف قليلًا، ونظر إلى ابنه نعمان، الذي كان لا يزال فتى يجلس إلى جانب والده، وقال بصوت حمل صدق التجربة:

"يا نعمان، عندما يكبر الإنسان ويواجه الحياة وحده، سيحتاج دائمًا إلى جذر يعود إليه. العائلة ليست مجرد وجوه تراها في الأفراح والأتراح، بل هي الأيدي التي تُمسك بك حين تتعثر، والحبال التي تربطك إلى الأرض كي لا تجرفك الرياح. إنك ستدرك بعد مرور الزمن أن العائلة هي المكان الذي يعود إليه المرء ليجد نفسه مجددًا، هو الزمان والمكان الذي يذكره بأصله ومنبع قيمه.

فأنت، كما كنت دائمًا، جسرًا بين الأجيال، تمتد يداك لتجسّد رابط الماضي بالحاضر. عندما تصطف عواصف الحياة على مر السنين، تكون العائلة هي النور الذي ينير طريقك. في اللحظات التي تتساقط فيها أوراق الشجر، وتوشك الرياح على اجتثاث الجذور، ستجد أن العودة إلى هذا الأصل لا تعني العودة إلى الوراء، بل هي تعزيز للوجود، ووقود لمستقبلٍ جديد.

لا تنسَ، يا نعمان، أن الحياة ما هي إلا رحلة مملوءة بالصعود والهبوط، ولكن العائلة، بتلك الحبال المتينة التي لا ترى، تجعلك دائمًا على الطريق الصحيح. هي الحماية من الزمان والمكان، هي ما يجعلك تتحمل وتحارب، وتجعل قلبك ينبض بقوة كلما تذكرته."

بينما كان الجد يونس يتحدث، كأن شيئًا غير مرئي كان ينسج خيوطًا قوية تربط القلوب ببعضها. النساء جلسن يستمعن والدموع تلمع في عيونهن، بينما راح الرجال يتبادلون نظرات توحي بالإجلال لتلك اللحظة. الأطفال توقفوا عن اللعب واقتربوا ليصغوا إلى صوت الجد الذي بدا كأنه قادم من الماضي والحاضر معًا، ليزرع فيهم حكمة تحملهم نحو المستقبل.

ثم أشار الجد يونس نحو شجرة الزيتون خلفه وقال:

"انظروا إلى هذه الشجرة، جذورها عميقة في الأرض، تتشابك مع جذور الأشجار الأخرى في الحقل. لا تقف شجرة وحدها، ولا تعيش فقط لأوراقها، بل تشارك الأرض والماء والهواء مع ما حولها. أنتم كذلك، إن صمدتم معًا وتآزرتم، لن تستطيع أي عاصفة أن تُسقطكم."

تلك الكلمات لم تكن مجرد نصيحة، بل إرثًا حيًا يتردد صداه في كل فردٍ من العائلة. صار حديثه منارًا، يعود إليه الجميع كلما ضاقت بهم الحياة أو شعروا بأن الروابط تضعف. كان كل واحد منهم يجد في تلك الكلمات ملجأً يحميه من الرياح العاتية ويمنحه القوة لمواصلة التقدم.

العائلة، كما كانت شجرة الجد نعمان، كانت مترابطة بجذورٍ عميقة تصل إلى ما بعد الزمان والمكان. وبينما يظل الماضي متجذرًا في قلوبهم، فإن الهدوء الذي يعطيه الاتحاد والنسيج المشترك يشكلان القوة المستمرة. وأي مسافة مهما بعدت لم تضعف تلك الأواصر، لأن الكلمات التي زرعها الجد وارتوت بها قلوب الجميع كانت أصل المسيرة وصمام الأمان.

ومع كل تحدٍ جديد، كان يبدو أن الروابط لا تنكسر، بل تتصلب أكثر فأكثر، مثل الجذور التي تتمسك بالأرض بشجاعة رغم العواصف.

مرت السنين، وكبرت العائلة، وانتشرت فروعها في أماكن مختلفة. لكن ليلة وحدة المحبة تلك بقيت محفورة في ذاكرتهم. كان كل واحد منهم يتذكر صوت جدنا يوسف وهو يحملهم على جناحي الحكمة والمحبة، ويقول:

"المحبة لا تعرف حدودًا. العائلة هي الوطن الأول والأخير، هي ملجؤكم حين تغلق الأبواب في وجوهكم. حافظوا عليها كما تحافظون على أنفاسكم."

وهكذا، كان جدكم يونس ليس مجرد رجل في حياتهم، بل قلب العائلة النابض، وجذر الحكمة الذي ربطهم عبر الأجيال.

الفصل التاسع عشر

"رسالة إلى المستقبل"

في إحدى الأمسيات الباردة، جمع الأب أبناءه حوله، وألقى نظرة على الورقة القديمة التي حفظها بعناية طوال هذه السنين. تأمل الوجوه الصغيرة التي تنتظر حكاية عن جدهم نعمان، ثم قال:

"تعرفون يا أولادي أن جدكم نعمان لم يكن مجرد رجل عادي. كان يحمل في داخله إرثًا عظيمًا من أبيه يونس، إرثًا يشع بالمحبة والمسؤولية. ولعل أعظم ما تركه جدكم نعمان هو رسالة كتبها بخط يده، رسالة إلى المستقبل، رسالة إلينا جميعًا.

قبل وفاته بأسابيع قليلة، جلس جدكم الكبير يونس وحده تحت شجرة التين الكبيرة في الحقل، وأمسك بقلم وورقة صفراء قديمة. كتب كلماتٍ كانت تنبض بالحياة، كلمات يعرف أنها ستصل يومًا ما إلى أحفاده. كتب:

"يا أبنائي وأحفادي، تعلموا من الأرض، فهي أستاذة صامتة. اسقوها لتسقيكم، وكونوا أوفياء لها لأنها الجذور التي تغذي شجرة العائلة. لا تنسوا أبدًا أن الهوية هي حصنكم، وأنكم إن تمسكتم بما يربطكم بأرضكم وتاريخكم، فلن تستطيع العواصف أن تجتثكم من جذوركم. لا تخافوا التحديات، بل واجهوها كما يواجه الزيتون الجفاف، بشموخ وعناد. واعلموا أن حب العائلة، مثل حب الأرض، هو الزاد الحقيقي لكل إنسان."

كل كلمة كتبها جدكم كانت تنبع من قلبٍ مليء بحب الأرض والتراث، وكان يعتقد أن هذا هو العهد الحقيقي الذي يجب أن يقدمه للأجيال القادمة. لقد كان يرى في كل شجرة، وكل نبتة، صورة عن الحياة التي كانت العائلة قد أقامتها، حياة ملونة بذكريات الماضي، ومرت بها أيام من العرق والجد، لكنها كانت دائمًا تخضر وتزدهر من جديد.

جدكم يونس، بكل ما كان يملك من قوى وإيمان، دفع الجميع حوله إلى التمسك بقيم الأجداد وحب الوطن. كان يعلم أن الأوطان لا تُعاش إلا بالتمسك بجذورها، وأنه يجب على الأجيال القادمة

أن تحترم تلك الجذور وتحميها من الرياح العاتية التي تعصف بها. كان يصدق أن الإرث الحقيقي للعائلة هو ما تعطيه للأجيال القادمة من قيم ومبادئ، لا مما تملكه من المال أو الممتلكات."

واضاف الأب سامي بابتسامة، "هذه هي الرسالة الحقيقية لجدكم يونس، ومهما مرت السنين، يجب علينا أن نتمسك بها، وأن نجعل هذه الكلمات إرثًا يعيش في قلوبنا كما كان حيًّا في قلبه هو."

عندما قرأ جدكم نعمان هذه الرسالة لأول مرة، كان شابًا في مقتبل عمره. قال لي مرة: " بني، هذه الرسالة ليست مجرد كلمات. إنها مشعل أضيء به طريقي."

وظل جدكم نعمان وفياً لتلك الكلمات. علمنا أن الهوية ليست شعارًا أو عنوانًا نعلقه على الجدران، بل هي ما نعيش من أجله. كانت أفعاله طوال حياته دليلًا على هذا الفهم العميق للهوية والارتباط. عرف جيدًا أن المسؤولية ليست مجرد كلمة عابرة، بل هي التزام حقيقي، يتطلب منه أن يكون القدوة لأولاده وأحفاده، وأن ينقل لهم تلك القيم التي زرعها فيه جده يونس.

ربما أكثر ما أثر فيه، كان ذلك الإحساس العميق بالمسؤولية تجاه العائلة والأرض والمجتمع. كان يعتقد أن كل فرد في العائلة هو جزء من هذه المسؤولية الجماعية، وأن الواجب تجاه أرضه وأهله لا ينتهي بمجرّد الواجبات اليومية، بل يمتد إلى التضحيات التي يقدمها، من خلال تعامله مع كل فرد وكل تحدٍ يواجهه. العائلة بالنسبة له كانت جوهر الحياة، وواجب المحافظة عليها هو أبرز رسالته.

وفيما كان يجلس في الحقل، يتأمل شجرة الزيتون في زاويته الصغيرة من الأرض، كان يرى الصورة الكبيرة التي تتجاوز الحظوة الشخصية. كان يشعر بأن كل فرع ينمو هو شاهد على مرور الزمان وتلاحم الأجيال. كان يشعر بالفخر عندما كانت أرضه تعطيه ثمرة غنية كأنما تُكرم جهده وعزيمته. وأثناء عمله في الأرض أو حين كان يجلس مع الأصدقاء، كان لا يتوقف عن تذكير الجميع بالقيم التي كانت تمثل محور شخصيته: الاحترام، الإيثار، والعمل المستمر.

كما أن تعاطيه مع المجتمع كان بمثابة درس عملي لتطبيق هذه القيم. لم يكن دوره في المجتمع مقتصرًا على كونه فردًا محترمًا بين أهل القرية، بل كان أيضًا مصلحًا اجتماعيًا، يبث فيه روح التعاون والتآزر في كل لقاء. كان دائمًا ما يعظ الناس في البساطة وكيفية العيش من أجل الآخر، وكيف أن قوة المجتمعات تكمن في تعاضد الأفراد، وأن لكل شخص دورٌ يجب أن يؤديه بكل صدق وتفانٍ.

كان جدكم نعمان يجسد رسالة ابيه في كل خطوة، وكل كلمة يخرج بها كانت تترسخ أكثر في القلوب. لقد كانت حياته رمزًا للفخر، وعاشت رسالته التي تركها تضيء دروبنا وتدفعنا للأمام على خطاه، محافظين على تراثه، مواصلين المسير كما كان يرغب.

انتهى الأب من الحديث، بينما كان أبناؤه ينظرون إليه بدهشة واهتمام. ثم أضاف:

"هذه الرسالة يا أولادي ستظل معنا، نتناقلها من جيل إلى جيل، لأنها ليست حكاية جدنا يونس فقط، بل هي وصيته لنا جميعًا أن نبقى متمسكين بأرضنا، بعائلتنا، وبهويتنا."

كانت تلك الليلة بدايةً لفهم جديد في قلوب الصغار عن إرثهم، وعن المعنى الحقيقي لرسالة الجد يونس: ألا يدعوا الأيام تمحو ما زرعته جذور العائلة في أعماقهم.

الفصل العشرون

"نعمان.. قصة إنسان لا يُنسى"

اجتمع الأب بأبنائه بعد العشاء في غرفة الجلوس، حيث كان دفء العائلة يعم المكان. بادر الأب قائلًا: "أحبائي، اليوم أريد أن أخبركم قصة سمعتها من زميلة لجدكم نعمان. إنها حكاية جديرة بالسرد، لما تحمله من دروس عميقة وحكمة بالغة."

نظر الأبناء إلى والدهم بشوق، وتعلقت أعينهم به بينما بدأ بسرد القصة على لسان زميلة جدهم.

القصة كما روتها زميلة جدكم نعمان:

- أتذكر تلك اللحظة كما لو كانت الأمس. كان ذلك اليوم الذي قابلت فيه الأستاذ نعمان للمرة الأولى في أحد الاجتماعات التربوية. دخل القاعة بخطوات واثقة، وابتسامة دافئة كانت كفيلة بأن تبعث شعورًا بالأمان في نفوس كل الحاضرين. أذكر أنني نظرت إليه بدهشة، فقد كان مزيجًا فريدًا من الهدوء والقوة، وكأنه يجمع بين ثبات الجبال ولطف النسيم.

حين قدَّم نفسه ببضع كلمات، شعرت أن هناك شيئًا مختلفًا في حضوره. لم يكن رجلًا يتحدث لمجرد الكلام، بل كانت كلماته تمتد كالجسور، تصل بين عقله وقلوب مستمعيه. كان ذلك اللقاء بمثابة الشرارة الأولى التي أيقظت فضولي لمعرفة المزيد عنه.

وتتابع:

عملت إلى جانبه سنوات طويلة كمفتشة في السلك التربوي. رغم أن خبرته كانت تفوق خبرتي بمراحل، إلا أنني لم أشعر يومًا بالفارق. كان يتعامل معي ومع الآخرين بعفوية وتواضع نادر. أتذكر كيف كان يُشعرني دائمًا بأننا شركاء في الهدف، لا متنافسين.

ذات يوم، في أحد الاجتماعات الكبرى، جرؤ أحد الحاضرين على سؤاله: "لماذا لا تحمل الحاسوب معك كالبقية؟". توقف والدك لحظة، ثم أجاب بابتسامة لطيفة واثقة: "لأن كل شيء أحمله هنا"، مشيرًا إلى رأسه وقلبه. ضحك الجميع، لكن بالنسبة لي، كانت كلماته تلخص فلسفته في الحياة؛ البساطة التي تخفي خلفها عمقًا هائلًا.

- في أحد الأيام التي أمضيناها معًا، استوقفني حديثه عن طفولته في "الزاوية"، تلك البلدة الصغيرة التي شكلت روحه. حكى لي عن الأيام التي كان يساعد فيها والده في الحقول صباحًا، وعن الليالي التي كان يقضيها يقرأ تحت ضوء فانوس صغير. قال لي بحنين واضح: "تعلمين؟ لم يكن لدي

الكثير، لكن كان لدي حلم. حلم أن أكون ذلك الشخص الذي يفتح للآخرين نافذة على العالم." وقد حقق هذا الحلم بامتياز.

نعمان لم يكن مجرد زميل عمل؛ كان إنسانًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى. في أحد الأيام، وبعد اجتماع شاق، أخبرني أنه يريد المرور على مدرسة قديمة بالقرب من قريته. توقفنا هناك، ورأيت بأم عيني كيف عانق أحد الحراس الكبار السن كأنه صديق قديم. حين عدنا إلى السيارة، قال لي: "هذا الرجل كان يفتح لنا المدرسة كل صباح بابتسامة. تعلمت منه أن التفاني في العمل يمكن أن يغيّر حياة الناس."

واتممت كلامها:

"فقدان نعمان كان كخسارة جزء من الروح. يوم وفاته لم يكن يومًا عاديًا، بل كان كصفحة تطوى من كتابٍ لا يريد المرء أن ينتهي. لكن إرثه لا يزال يعيش بيننا، في كلماتنا، وفي قلوبنا، وفي كل لحظة نتذكر فيها حكمته ولطفه.".

عند انتهاء القصة، نظرت دنيا إلى والدها وسألته: "يا أبي، هل كانت زميلة جدنا تحبه كثيرًا؟"

ابتسم الأب وقال: "ليس فقط تحبه، يا دنيا، بل كانت تحترمه وتقدره كما كنا جميعًا نفعل. جدكم نعمان كان من النوع الذي يصنع فرقًا في حياة كل من يقابله."

قال سمير متحمسًا: "أبي، أريد أن أكون مثل جدي. أريد أن أساعد الآخرين وأكون عظيمًا مثله."

ضحك الأب وربت على كتف ابنه وقال: "يمكنك ذلك يا سمير. إذا عملت بجد وتحليت بالتواضع والحكمة مثل جدك، ستترك أثرًا جميلًا مثلما فعل."

أضافت شام بحماس: "أريد أن أكتب قصته في مدرستي. أظن أن الجميع سيحب أن يعرفوا عنه."

قال الأب "فكرة رائعة يا شام. سأساعدك بتقديم المزيد من التفاصيل إذا أردتِ."

واختتم الجميع الحديث وهم يتخيلون كيف كان سيكون جدهم نعمان فخورًا بهم وبطريقة إحيائهم لذكراه. اللحظات التي جمعتهم تلك الليلة أصبحت ذكرى دافئة جديدة تضاف إلى إرث نعمان.

الفصل الواحد العشرون

"نعمان... إرث الحكمة والمحبة"

جلس الأب سامي في غرفة المعيشة بهدوء، ينظر إلى ابنائه، الذين تحلقوا حوله ينتظرون بشغف القصة الجديدة التي ينوي روايتها عن جدهم وبعد لحظة تأمل عميقة، قال بصوت يملأه الحنين:

- "أبنائي الأعزاء، سأحدثكم الليلة جدكم، الإنسان الذي كان أكثر من مجرد أبٍ أو معلم. كان صديقاً، مرشداً، وقدوة للجميع. كما حدثني عنه زميله المقرب الذي لم يستطع الحديث عنه دون أن تتأثر كلماته بمشاعر الحب والفقد..."

ثم بدأ بالسرد:

قال زميل جدكم يوماً: "لم يكن نعمان زميلاً عادياً. كان صديقاً وفياً، مرشداً مليئاً بالحكمة، وأباً روحياً لكل من تعامل معه. في كل لقاء جمعه بزملائه، كان يترك وراءه بصمة لا تُنسى. تلك البصمة كانت مختلفة، كأنها توقيع بالحكمة والحب. كان حضوره يملأ المكان أماناً، وكأن وجوده يمنح الأيام معنى أعمق وأجمل. إذ كان عقله المتقد لا يتوقف عن إضاءة عقول من حوله، وابتسامته كانت تشع بالسلام والطمأنينة التي لا يمكن أن تجدها في مكان آخر. كان حديثه يزرع الأمل في قلبك، ويجعلك ترى الحياة من زاوية أجمل.

وتابع: "حمل أبوك إرثاً من القيم الراسخة التي لم تضعف أبداً تحت وطأة الزمن. بل على العكس، كانت تزداد وهجاً وتأثيراً كلما مرّت السنوات. كانت مبادئه تعتبر بوصلة للعديد ممن حوله، طريقًا يهدي به التائهين نحو القيم النبيلة. نهجه الراقي في الاحترام والتقدير جعل كل من حوله يشعر بقيمته وأهمية وجوده. كان مجتمعنا يعتمد على رجالٍ مثله، أولئك الذين جعلوا للأخلاق ركيزة لا تهتز، وكانت مبادئه تزيدهم تأكيدًا على أهمية الوفاء والمسؤولية. نادراً ما تجد شخصاً في هذا العالم يحمل هذا القدر من الإخلاص لنفسه وللآخرين كما كان هو.

وفي جلساته مع زملائه، كان أبوك ينثر أفكاره كأنها لآلئ من بحر واسع لا ينضب. كل كلمة كان يقولها تحمل حكمة ومعرفة، وكأنها مشعل نور يسير به الآخرون. لكن الأروع من ذلك، هو أنه لم يكن يبخل بالكلمة الطيبة أو النصيحة الحكيمة، فكان يوماً تلو الآخر يضيف إلى حياة من حوله بصماته المضيئة التي تبقى خالدة في ذاكرة كل من عرفه. أما تضحيته الاجتماعية، فكانت حكاية أخرى تروي قصة رجل كان يوماً ما الأكثر سخاء في خدمة الآخرين.

كان دائماً يضع الآخرين أولاً، يعطي بلا حدود، وكأنما يقول بيديه: "خذوا هذا، فهو حق لكم". كان يغدق بالخير أينما ذهب، والعمل الصادق كان هدفه الأول. لم يكن في قاموسه كلمة "منفعة شخصية". كان عمله بصمت، بلا تظاهر ولا انتظار للشكر، وكأن سعادة الآخرين هي مكافأته الحقيقية، وكأن السكينة التي يجدها في قلبه هي أكبر جزاء يناله. تلك كانت سماته المميزة، تلك اللمسات الخفية التي لطالما جُلبت في قلوب محبيه ليصطفوا جميعاً وراءه، مستمدين القوة من تعاليمه."

توقف الأب قليلاً، كأنه يحاول التحكم في مشاعره، ثم أكمل بصوت عاطفي:

"قال زميله أيضاً: اسم نعمان كان دائماً يثير الحب والاعتزاز في قلوبنا. اليوم، ونحن نفتقده، يبقى اسمه محفوراً في ذاكرتنا، مملوءاً بالخير والحب. لم يكن مجرد زميل أو صديق، بل كان مدرسة تعلم منها الجميع كيف يعيشون بأمانة واحترام. إن فراقه ليس شيئاً ننساه، بل لوعة سنحملها في قلوبنا دائماً."

خيم الصمت للحظة في الغرفة. وبعدها تكلم سمير، الابن الأكبر، وقال بشيء من الحيرة:

_ "ابي، كيف كان جدي يفعل كل هذا؟ كيف استطاع أن يكون بهذا الكمال؟"

ابتسم الأب بحنان وأجاب: "لم يكن كاملاً يا بني، لكن سر عظمته كان في قلبه الكبير، في محبته للناس وعطائه غير المحدود. كان يقول دائماً إن العطاء يجعلنا أكبر من أنفسنا. لا تنظر إلى الأخطاء الصغيرة التي قد تحدث، بل انظر إلى المدى الذي وصل إليه بتفانيه. لقد جعل من العطاء فلسفة حياته، ولم يكن يقتصر على أوقات الرخاء فحسب، بل كان يسعى دائمًا لمد يد العون للآخرين في الأوقات الصعبة. لم يكن يختار من يساعده، بل كان يسعى لسماع حاجات الناس وقضاءها بغض النظر عن حالتهم أو مكانتهم. وكان يرى في ذلك الغنى الحقيقي، في أن تكون لديك القدرة على التأثير في حياة الآخرين بشكل إيجابي."

تابع الأب وهو يتأمل في الأفق: "ربما كانت أشياء صغيرة بالنسبة له، لكنها كانت تغير حياة العديد من الناس. ربما كان ذلك سر عظمته الحقيقية. وفي كل ما فعل، كان يحافظ على نقاء قلبه، لأن العظمة تأتي من الداخل، من المحبة، ومن قدرته على أن يترك أثراً طيباً في قلوب الناس.

"قاطعت دنيا والدها وقالت: " هل نملك نحن نفس القوة والحب في قلوبنا؟ كيف يمكننا أن نحقق ما حققه أبي؟"

نظر الأب إلى وجهها الصغير المشرق وقال بحنان عميق: "بالطبع، يا دنيا. كل إنسان لديه القدرة على أن يحب، أن يعطي، وأن يحترم. إذا كنتم تفعلون ذلك بصدق، ستعيشون مثل جدكم تماماً. الحب والعطاء هما أعظم درس يمكن أن نتعلمه منه."

قالت شام بعد لحظة تأمل: "ابي، هل سأعرف عنه أكثر غداً؟ أريد أن أسمع المزيد عن جدي نعمان."

ضحك الأب بحنو وقال: " بالطبع، يا شام كما وعدتكم، سأروي لكم كل ليلة قصة جديدة عنه. قصصه لا تنتهي أبداً، فهي مليئة بالحكمة والمواقف التي تُلهم وتستحق أن تُروى."

أما صفاء، الابنة الصغرى، فنظرت ببراءة وقالت: " هل كان جدي يحبنا كما نحبه؟"

هنا امتزجت ضحكة الأب بدمعة خفية، ورد عليها قائلاً: "كان يحبكم قبل أن تولدوا، يا صفاء. كان يقول دائماً إن الحب إرث يتوارثه الأبناء عن آبائهم."

وفي النهاية، نظر الأب إلى أبنائه بابتسامة وقال:

"تذكروا، جدكم نعمان لم يكن مجرد قصة، بل إرث ستعيشونه وتشاركونه مع أصدقائكم وأبنائكم في المستقبل. لأنه الإنسان الذي كان محباً للناس والحياة بكل ما فيهما."

وهكذا امتلأت الغرفة بمشاعر الشوق والمحبة، وصار صوت الجد نعمان وروحه يسكنان القلوب الصغيرة التي بدأت تفهم قيمة ما تركه هذا الرجل العظيم.

الفصل الثاني والعشرون

"أدب نعمان: إرث الحكمة والمساواة"

الفصل الثاني والعشرون

"أدب نعمان: إرث الحكمة والمساواة"

جلس الأب مع أبنائه حول طاولة العشاء. بعد يوم طويل، قرر أن يكمل حكاياته عن جدهم نعمان، الأديب الذي لم يكن مجرد أب، بل شخصية تركت أثراً لا يمحى في عالم الأدب والحياة.

نظر الأب إلى أطفاله بابتسامة وبدأ قائلاً:

- "أبنائي، الليلة سأروي لكم شيئاً مختلفاً عن جدكم نعمان. ليس عن حكمته في الحياة أو دفئه في التعامل مع الآخرين، بل عن جانب آخر منه. الأديب، الكاتب والشاعر الذي لم تقتصر رسائله على الكبار فقط، بل وصلت إلى الأطفال، ليغرس فيهم قيم العدالة والمساواة منذ نعومة أظافرهم."

ثم تابع الأب بنبرة يملؤها الاعتزاز:

- " الأستاذ رمزي، وهو أحد زملاء أبيكم وأحد القراء المخلصين لأعماله، تحدث عن قصصه للأطفال قائلاً: 'كان أدب نعمان للأطفال متميزاً، مليئاً بالرسائل الهادفة والمعاني العميقة، لكنه تميز بشكل خاص بشيء فريد... كان يعطي مساحة كبيرة في قصصه لشخصيات الإناث على حساب الذكور.'

رفع سمير حاجبيه باستغراب وقال: "لماذا كان جدي يفعل ذلك؟ أليس من المفترض أن يكون هناك توازن بين الشخصيات؟'

ضحك الأب قائلاً: "يا سمير، كان لجدك نعمان هدف نبيل. أراد أن يتحدى تلك الأفكار النمطية التي تضع الإناث في مكانة أقل من الذكور. كان يرى أن الأنثى، سواء كانت فتاة صغيرة أو امرأة، تستحق أن تكون بطلة، تستحق أن تكون صاحبة القرار، قوية وواثقة بنفسها. كان يعلم أن أدب الأطفال يمكن أن يغرس القيم ويؤثر في عقولهم منذ الصغر، لذلك قرر أن يستخدم قلمه ليغير الطريقة التي ينظر بها الأطفال -وحتى الكبار- إلى الأنثى.'

قاطعت دنيا والدها بحماس: "يعني أن جدي كان يدافع عنا نحن البنات حتى في قصصه؟'

ابتسم الأب وقال: "نعم، يا دنيا. أراد أن يجعل البنات بطلات قصصه، ليشعرن أنهن قادرات على تحقيق أحلامهن، وأن قيمتهن ليست أقل من أي أحد. كان يعلم أن هذا سيساعد الأطفال على النمو بعقلية أكثر احتراماً ومساواة."

وأضاف قائلاً: "الاستاذ رمزي أيضاً قال شيئاً مهماً: كان نعمان واعياً تماماً للدور الكبير الذي يلعبه أدب الأطفال في ترسيخ القيم. ولهذا، لم تكن قصصه مجرد كلمات تُقرأ، بل كانت بذوراً تُزرع في قلوب الأطفال، لتنمو معهم وتجعلهم أشخاصاً أفضل."

تنهد الأب بعمق، وأخذ لحظة من الصمت قبل أن يتابع حديثه بحكمة أجداده التي لا تفارقه. كان الضوء الهادئ الذي ينساب من النافذة يسلط على وجهه ملامح الشفقة والتعاطف. رفع رأسه ونظر إلى أعين أبنائه الذين كانوا منصتين بكل انتباه، وكان على وجهه تجاعيد الزمن التي تروي قصصًا من عصور ماضية. ثم تحدث بصوته الذي يحمل عبق الحكمة:

"أبنائي، ما كتبه جدكم نعمان للأطفال لم يكن مجرد حكايات للتسلية، بل كان رسالة عميقة في طياتها. رسالة تقول إن المساواة ليست مجرد كلمة نرددها أو شعار نرفعه في المناسبات. إنها طريقة حياة. كان دائمًا يؤمن بأنه من حق كل إنسان، سواء كان فتاة أو صبي، أن يحظى بنفس الفرص، نفس الاحترام، ونفس التقدير. وكانت حياته مثالًا حيًا على أن العدالة هي الأساس الذي نبني عليه عالمًا أفضل."

أكمل الأب، وكان وجهه يتلألأ بالتعبير عن التأثر والجدية: "جدكم نعمان، على الرغم من التحديات الصعبة التي مر بها في حياته، كان يرى أن المعركة الحقيقية تبدأ عندما نتعامل مع بعضنا البعض بإنصاف. كان يريد أن يبني لكم مستقبلاً لا يشعر فيه أي أحد بأنه أقل من الآخر بسبب جنس أو لون أو خلفية اجتماعية. كانت أحلامه وطموحاته تُترجم في كل خطوة يخطوها في حياته، وفي كل عمل كان يقوم به لأجل الآخرين."

تبادل الأب النظرات مع أبنائه، ولم يستطع إلا أن يبتسم بشغف وهو يشاهدهم يلتقطون دروسه بحماسة: "لهذا السبب، أنتم اليوم تحملون في قلوبكم هذا الإرث. نحن بحاجة لأن نتمسك بتلك القيم في حياتنا اليومية. في تصرفاتنا مع بعضنا البعض، ومع الآخرين في محيطنا. لن يكون هناك عالم أفضل لكم إلا إذا عملنا على تحسين أنفسنا، وتمسكنا بتلك المبادئ التي حملها جدكم نعمان."

ثم همس الأب، مستشعرًا عمق هذه اللحظة، "جدكم ترك لكم مهمة، لا بل شرفًا أن تستمروا في نشر هذه الرسالة. وفي كل عمل تقومون به، وفي كل كلمة تقال منكم، يجب أن تتذكروا أنكم تمثلون جيلًا يعكس تعاليم الأجداد التي لا تموت. وبينما تمضون قدماً، اجعلوا عيونكم نحو العدل والمساواة، حتى تصبح حياتكم والمستقبل الذي تنتظرونه بريقًا من الأمل لغيركم."

إلى جانب حديثه، شعر أبناؤه بعبء المسؤولية والأمل الذي يُرَسَّخ في قلبهم، وكأن إرث الأجداد أصبح قوتهم في تحقيق التغيير، فخرجوا بهذه الدروس، ليعيشوا بهمة من أجل غدٍ أفضل.

قالت شام بتأثر: "ابي، هل يمكن أن أقرأ إحدى قصص جدي؟'

أجاب الأب بلهفة: "بالطبع يا شام. ما زالت قصصه موجودة، وسأبحث لك عن واحدة لتقرئها. وربما في الليالي القادمة، سأحكي لكم واحدة من أجمل قصصه، لأن فيها كل ما كان يؤمن به من حب وعدالة ومساواة.".

ابتسم الجميع بحب واشتياق وهم يتخيلون جدهم سلمان، الجد الذي كتب ليجعل العالم أكثر جمالاً وعدلاً. كانوا يشعرون بعظمة الإرث الذي تركه لهم، وبأنهم لم يكونوا فقط أبناءً أو أحفاداً له، بل ورثة لقيمه السامية التي استمر قلمها في الكتابة على صفحات الزمن. كان الكاتب الذي عاش قلمه لخدمة الأجيال القادمة، وسعى ليغرس فيها العدالة والمساواة، مسافرًا بأفكاره من جيل إلى جيل، كما زرع الحُلم في قلوب كل من قرأ كلماته.

وهكذا انتهت الليلة بذكرى جديدة عن الجد نعمان، كانت هذه الذكرى مختلفة، ليست مجرد ذكرى لمعلمين وأباء، بل كانت ذكرى الأدب والفكر التي سعى من خلالها الجد لتغيير العالم للأطفال، واحداً تلو الآخر. وظل حديثه يتردد في أذهانهم كما لو كان يحمل حبره الذي لا يجف، في إيمان راسخ بأن ما بدأه هو أمل لا يتوقف.

كان الجميع يشعرون أن مع كل كلمة تحملها رياح الليل، يقتربون أكثر إلى تحقيق تلك الرسالة التي تركها الجد لهم: أن الحياة، مهما كانت مليئة بالتحديات، يمكن أن تكون مكانًا أكثر إشراقًا، مليئًا بالمساواة والحب والتسامح، إذا عشنا تلك القيم التي زرعها فينا.

الفصل الثالث والعشرون

"وصية الجد: نزهة العمر في حقل الذكريات"

في صباح يوم الجمعة، قرر الأب أن يفاجئ أبنائه بنزهة غير تقليدية، لكن لم يكشف لهم عن وجهتهم مسبقًا. بينما كانوا في السيارة، توالت الأسئلة، لكن الأب ظل صامتًا مبتسمًا، يحاول الحفاظ على سر المفاجأة.

قالت شام، وهي تتطلع من النافذة: "أبي، إلى أين نحن ذاهبون؟"

أجاب الأب وهو يبتسم: "سترون ذلك قريبًا، فقط انتظروا."

بمرور الوقت، بدأ الأبناء يشعرون بالفضول والانتظار. هل كانت النزهة إلى البحر؟ أو إلى مكان مفتوح في الجبال؟ مع كل دَور آخر في الطريق، كان الشعور بالحماس يتزايد. عندما وصلت السيارة إلى مكان بعيد وغير مألوف، أوقف الأب السيارة أمام بوابة كبيرة من الحديد تفتح على مشهد من الطبيعة الأخّاذة. "ها قد وصلنا، هذا هو المكان!" قال الأب، بلهجة مليئة بالفخر.

ما إن نزلوا من السيارة حتى اكتشفوا أنهم في حقل بعيد عن الضوضاء والحياة اليومية. الأرض ممتدة حولهم بطابع طبيعي بكر، تحمل الزهور البرية والنباتات المتنوعة، بينما الأشجار الباسقة تظلل المكان وتضفي عليه هدوءً خاصًا. كان الحقل يمتد أمامهم بألوانه الخضراء التي تعكس الضوء، والأعشاب التي اهتزت برقة مع نسيم الرياح.

شعر الأبناء بالدهشة، وكانت نظراتهم تتنقل بين الأشجار والأرض، مفعمةً بالتساؤل. قالت شام:

"هذا المكان مذهل! هل كنا هنا من قبل؟"

أجاب الأب وهو يشير إلى شجرة السنديان الكبيرة: "هذه شجرة السنديان القديمة التي كان يحب جدكم أن يجلس تحتها. كان يقضي ساعات هنا في التفكير والكتابة. كل شيء هنا صنعه بيده. كان يعتبر هذه الأرض جزءًا من قلبه، ويريد منكم أن تلتقوا في هذا المكان، لكي تبقوا قريبين منه وتبنون ذكريات جميلة."

بينما كانوا يمشون في أنحاء الحقل، شعر الأبناء بشيء مختلف عن أي نزهة أخرى قاموا بها من قبل. كان هناك شعور من التواضع والتقدير، كأن الأرض تتحدث عن القيم التي غرسها جدهم، وأراد أن تنتقل إليهم.

ثم دعا الأب أبناءه للجلوس حوله. فقال: "اليوم، سنفعل شيئًا مهمًا. سنتعلم كيف نزرع شيئًا هنا في الحقل ".

بعد قليل، بدأ الأبناء يجلبون المعدات الصغيرة التي كان قد أعدّها الأب في حقيبة السيارة. كان من الواضح أن هذه اللحظة مميزة جدًا لهم. معًا، قاموا بزراعة بعض النباتات الصغيرة من الزهور والفول. شام كانت تتحمس، وتحث أشقاءها على مساعدتها، بينما يونس بدأ في وضع بذور الفول بين التربة الناعمة، كما كان يفعل الجد نعمان في أيامه.

قال الأب بحماس: "لنغرس الزهور التي تنمو هنا وتظل تذكرنا بهذا اليوم، فهذا المكان سيظل في قلوبنا دائمًا."

وكانوا جميعهم، بعد أن زرعوا معًا، يجلسون في المكان الذي منحهم الجد نعمان مكانته العزيزة. كانت الأرض التي زُرعت هنا تفيض بالأمل، وكانت اللحظات التي عاشوها تضفي سحرًا خاصًا على تلك النزهة.

بينما كانوا يجلسون مسترخين حول الحقل، توقفت دنيا، وقد بدت على وجهها علامات الفهم العميق. في ذهنها، ظهرت صور ذلك اليوم الذي جمعهم فيه الجد تحت تلك الشجرة قبل عدة سنوات، في آخر مرة جاءوا إلى هذا الحقل. كانت قد كانت طفلة حينها، وكانت الأرض مليئة بالخضرة والفول الذي كان الجد قد زرعه بيديه. كانوا يركضون ويلعبون، ينقبون عن الفول وسط الحقول المفتوحة، بينما ضحكاتهم تعلو بين الأشجار والزهور.

فجأة، تذكرت دنيا تلك اللحظة الدافئة عندما جلس الجد معهم وقال بتلك الكلمات التي أحست بوقعها في قلبها: "هذا الحقل... عملته لكم، لم تُحده الجدران ولا الأسوار، بل هي الأرض الطبيعية. كي تجتمعوا به كل فترة، ولتكون لديكم هذه البذرة الحية من روح عملنا وجهدنا. إن كان هناك شيء يمكنكم أن ترثوه، فهو ليس المال فقط، بل أيضًا هذه الذكريات وهذه الجمالات. حافظوا عليه، فهو ليس ملكًا لي، بل لكم جميعًا."

كان صوت الجد في ذاكرتها كما لو أنه يتردد في المكان ذاته. بينما كانوا يسيرون وسط الحقل، شعروا أن وجودهم هنا لا يقتصر فقط على زيارة مكان، بل هو تجسيد لتلك الوصية التي تركها الجد. هذا الحقل كان الأمانة التي سيظل المكان يتحدث عنها للأجيال القادمة، وسيتواصل حب العائلة للأرض، حبه الذي زرعه مع بذور الأرض، وأوراق الأشجار، وروائح الزهور.

قالت صفاء، وهي تجلس بجانب أبيها: "اليوم كان أروع يوم في حياتي. لم أكن أتوقع أبدًا أن نلتقي في هذا المكان ونزرع شيئًا مثل هذا."

أجاب الأب، وهو ينظر إلى الأرض مبتسمًا: " هذا ما كان يريده جدكم، أن تجمعكم هذه الأرض في كل مرة، وأن تكون هذه الزهور والنباتات شواهد على أنكم مهما كبرتم، ستظل أرواحكم مع هذه الأرض. هذا هو درس الجد، وهذه هي الوصية التي تركها لنا."

أخذ الأبناء وأبيهم يحركون ما زرعوه بافتخار، يعلمون أنهم اليوم تركوا بصمتهم في أرض اجتمعوا عليها بحب، وعلِموا أنه سيكون لديهم دائمًا مكان يعودون إليه ليجددوا ذكرى هذا اليوم، وهو يوم نزهة العمر.

بعد أن أخذوا قسطًا من الراحة في ذلك المكان الهادئ، حيث كانت الشمس تغرب ببطء، جلسوا جميعًا بالقرب من شجرة السنديان الكبيرة التي كانت شاهدة على العديد من اللحظات الجميلة في الماضي. نظر الأب إلى أبنائه وقال مبتسمًا: " سأقرأ لكم إحدى القصائد التي كتبها جدكم، وسأفسر لكم معانيها لتفهموا كيف كانت تلامس روحه، خاصةً عندما كان يتأمل في الطبيعة والحياة."

بدأ الأب في قراءة قصيدة جدهم نعمان "سفر مع النعناع" بصوته الرصين، الذي حمل طابعًا عاطفيًا في كل كلمة.

بعد أن أنهى قراءة القصيدة، التفت إلى أطفاله الذين كانوا منصتين بشغف. قال لهم بصوت يحمل دفء الذكريات:

- "أريد أن أشرح لكم بعض المعاني التي أراد جدكم التعبير عنها في هذه القصيدة."

النعناع:

"بالنسبة للجد، لم يكن النعناع مجرد نبات. كان رمزًا لكل ما وفرته والدته من راحة وحنان. كان يعبر عن طقوسها اليومية البسيطة، عن تلك اللحظات الصباحية حيث كانت رائحة النعناع تمنح الإحساس بالطمأنينة والحب."

الشمعة:

"الشمعة تشير إلى حياة أمه، التي كانت مليئة بالعطاء الهادئ. مثل الشمعة، كانت تضيء حياتهم دون أن تطلب شيئًا، حتى انتهت حياتها لكن نورها لم يخفت أبدًا. تركت هذا النور ليضيء قلوبهم إلى الأبد."

الدعاء:

"حين قال جدكم: آية الشعائر التي تحط عند جرسها الخطى، كان يشير إلى الروحانية التي كانت تملأ حياتها. كانت تزرع الإيمان في قلوب أولادها، وتركت دعواتها كحصن يحيطهم في حياتهم كلها."

توقف الأب قليلاً، ثم أكمل: "المعنى العام للقصيدة يتحدث عن الحب والتفاني الذي تعطيه الأم، وكيف يبقى أثرها في حياتنا حتى بعد رحيلها. أراد جدكم أن يبين لنا أن التفاصيل الصغيرة، مثل رائحة النعناع أو لمسة اليد، قد تكون أعظم ما نحمله في ذاكرتنا."

قالت شام، وقد غلبها التأثر: "إذن يا أبي، النعناع كان رمزًا لكل الحب الذي تركته الجدة؟"

ابتسم الأب، وقال وهو يهز رأسه: "بالضبط، يا ابنتي. الأشياء التي نعتبرها بسيطة غالبًا ما تكون الأثمن. الأهم أن نتعلم كيف نراها ونقدرها."

تحدث سمير بنبرة مفعمة بالتأمل: "هذه القصيدة تجعلني أفكر في كل ما تركه جدي لنا، ليس فقط هذا الحقل أو المكان، بل الروح التي نعيش بها والطريقة التي نحب بها بعضنا."

رد الأب بفخر وهو ينظر إلى أطفاله: "هذا ما أريده أن تتعلموه. الحب والاهتمام والحفاظ على ذكريات العائلة والأشياء التي تربطنا بها."

في تلك اللحظة، عمّ الصمت المكان، وكأن روح الجد تحوم بين الأشجار، تحرسهم وتملأ قلوبهم بالسكينة. غمرت رائحة المساء كل شيء، لتبقى هذه اللحظة محفورة في قلوبهم كذكرى من أجمل الأيام، وكوصية يعيشون بها كل حياتهم.

الفصل الرابع والعشرون

"وداع الأمل: حكاية نعمان في رحلته الأخيرة"

في اليوم المشمس من 18 يوليو 2017، كانت السعادة تغمر جدكم نعمان الذي أمضى سنوات طويلة يحلم برحلته إلى بلاد الأندلس، موطن الحضارة والجمال. بينما كان يجمع أغراضه في حقيبته، توقف للحظة ليقرر زيارة الحقل الذي يعشق التردد إليه.

وصل جدكم إلى حقله الممتد والمزين بأشجار العنب والتين والزيتون، وكان المنظر أكثر من رائع. الطيور تغرد على أطراف السماء، وأشعة الشمس الذهبية تلامس الزهور والأشجار، مما جعل المكان يعكس لوحة فنية حية. كان عبير الأرض الطازجة يتسلل في الأجواء ويملأ صدره بالسلام الداخلي. كانت كل زهرة وكل حبة عنب زرعها بنفسه في هذه الأرض، كأنها تشاركه فرحته. كان يشعر أن هذه الأرض ترد له التحية بأجمل الأصداء، وتمنحه سلامًا يشعر به في قلبه قبل كل شيء. في تلك اللحظة، لم يكن فقط مجرد مزارع يعمل في الأرض، بل كان جزءًا من تلك الأرض التي كادت أن تنطق بقصصه وتجاربه التي صنعتها.

هناك، بين تلك الأشجار، في زهو الخضرة والتلال الرائعة، كان عقله يسافر بعيدًا نحو الأندلس، تلك الأرض التي حملت حضارة عظيمة. تتعدد الزهور هنا، وتختلط في تناغم تام مع تلال المكان العتيقة، لكن أفكاره كانت قد تأخذ شكلًا من آخر. فكّر في الأندلس التي كانت تحمل في ثناياها روائع الفن والهندسة المعمارية، تلك المدينة التي تعلم الناس فيها أن الحياة قد تكون تجسيدًا حقيقيًا للتعايش والتناغم بين الثقافات المختلفة. شعر كأن هناك رابطة بين الأرض التي وقف عليها وهضاب تلك الأراضي الأندلسية، رابطٌ في قلبه عززته تلك المعرفة عن الأرض التي كانت ملتقى الحضارات.

في ذهنه، كان يعيد الذاكرة إلى تلك الفترة التي حملت معها دروسًا لا تقدر بثمن. كانت الأندلس مركزًا للفكر والفلسفة في أبهى حالاتها. أبحرت فيه العلوم عبر تلك الأزمنة العريقة، فازدهرت المجتمعات من خلال هذا التفاعل المثمر بين مختلف الأمم والديانات. كانوا هناك يعنون بقوة التفاهم والسلام، وكانوا يعملون سوياً ليرسموا مستقبلًا متقدمًا وازدهارًا لأجيال قادمة.

كلما كانت أصابع يده تلمس جذور الأشجار، كان يشعر أن هناك شيء ما يربطه بتاريخ بعيد، بماضٍ عريق، لم يكن بعيدًا عنه فقط بالجغرافيا، بل كان مرتبطًا به في داخل قلبه. وقد بات يعتقد أن تلك الأرض التي تزينها غصون الأشجار، كانت مكانًا يخفف عن النفس ويرتبط بشكل متين بجذور الماضي والحضارات التي سادت. ربما كانت دروس تلك الفترة التاريخية التي شهدتها الأندلس ترافقه في كل لحظة من لحظات العمل، ويُكمل بها مشواره، حيث يستمر في زراعة الأرض بمحبة، تمامًا كما زرع علم الأجداد والمفاهيم الإنسانية التي لا يمكن أن تندثر.

بعد فترة قصيرة في الحقل، عاد إلى المنزل حيث كانت جدتكم ضحى قد أعدت له طبقًا من "الخبيزة"، الذي يعشقه. لم يكن مجرد طبق عادي، بل كان ذكريات يسافر به إلى حضن أمه، التي لطالما أعدته بحب وعناية.

جلسا معًا حول المائدة، والجو مفعم بالأنس والبهجة، أفقى الحديث بينهما ينساب كما لو كان يداعب النسيم اللطيف في المساء. مع كل لقمة يتناولها، كانت أحاديثهما تترنح بين ذكرى الأندلس التاريخية وبين تخطيطهما لرحلة العمر القادمة، والتي كانا يحلمان بها طويلًا. كان الحديث عن قصر الحمراء ممتعًا؛ يتخيلان العظمة التي كانت تحتضن تلك القاعات الزخرفية بالألوان الذهبية والأزرق الزاهي، وكيف أن تلك القلاع شهدت لحظات من التفوق الحضاري كانت تمثل ذروة الفن والمعرفة.

لم يخف شغفها عندما تذكر المكتبات التي كانت تحتوي على كنوز من العلوم والفنون، تلك التي فتحت أبوابها لطلاب المعرفة من شتى أنحاء العالم. كانت أحلامهما تتنقل بين هذه الأماكن التي حملت أصالة تاريخ الأندلس، تملأ قلبيهما بالشغف لاستكشاف المزيد، وكأن العالم كله أصبح بين أيديهما. كانا يتبادلان القصص عن الفلاسفة، الأدباء، والعلماء الذين تزخرت بهم مكتباتهم، وعن المنهج العلمي والرياضيات التي حملوها نحو العالم.

بعد تناول الطعام، كان هناك شعور من الطمأنينة يحوم في الأجواء. نهض جدكم نعمان بصعوبة، حاملاً نفسه عبر الغرفة في خطوات بطيئة نحو الكنبة. وتبعته جدتكم برشاقة في لم شمل الأطباق الفارغة بعد العشاء. لكن عينيه، رغم إرهاقه، لم تخفيا شغفه الدائم بالمعرفة ورغبته في المضي

قدمًا. كانت تنبض بشيء من الضوء الذي يسعى دائماً لأن يلاحق الحقيقة، ليترك إرثًا وراءه. حكت جدتكم عنه أنها كانت دائمًا ترى فيه شعاعًا من التفاؤل، لكن اليوم، كان هناك شيء غريب يلوح في عينيه، كما لو أنه يشعر بأثر ما يمر بينه وبين الزمن، فتلك اللحظة كانت تشير إلى حقيقة لم يكن يعيها بعد.

استلقى على الكنبة وأغمض عينيه في راحة خيالية، لكن الحلم الذي غرق فيه لم يكن مجرد خيال. بل كان بداية لرحلة جديدة غير متوقعة؛ فهي لحظة كانت نهاية في جزء من الوقت، لكنها في الوقت ذاته، بداية لأثر لا يزول. كانت هذه اللحظة، التي قد يظنها البعض عادية، هي آخر صفحة في قصته على هذه الأرض، صفحة يرسمها بيديه الراحلتين بعد أن كرّس أعوامًا طويلة للبذل والعطاء.

كان الوقت يمر بسرعة، وكلما رمقت عيناه تلك الغرفة، كانت ذاكرته تتسارع باللحظات الماضية. فجأةً، ترك نفسه للراحة ليغمره هدوء غير معهود، تمامًا كما كان يحلم به كلما جلس مع جدتكم في تلك اللحظات الصامتة؛ حيث لا يوجد شيء سوى الذاكرة والمكان. ورغم أنه لم يدرك تمامًا أن تلك اللحظة هي النهاية، إلا أن قلبه، الذي طالما اختار الحياة في لحظاتها الفاتنة، كان يترك وراءه دربًا من الأمل ليراها الآخرون أحياء، حاملين دوماً شرف "تحت شمس الأجداد" حيث الطيبون لا يموتون.

عندما عادت جدتكم إليه، وجدته ساكنًا كأنه نائم، إلا أن بريق الحياة كان قد فارقه. لم تكن صرخة الزوجة سوى إعلان عن لحظة فقد هزت الجميع. هرع الأصدقاء والجيران، وغرق المكان بالحزن والفقدان لرجل عاش عمره محبًا ومعطاءً.

ما إن وقع الخبر على أهل البلدة والأصدقاء حتى ملأهم الحزن. فقدت القرية شخصية عظيمة ذات حضور قوي، صاحب قلم ملهم وكلمات تهز الضمائر. فارق الجميع شخصًا قريبًا للقلب، كانوا يعتبرونه منارة للعلم والأدب، نموذجًا للصبر والحب.

بينما القلوب تنبض بالحزن، توحدت الذكريات في نفوس الجميع، ويستمر إرث جدكم في التدفق بين المحاصيل التي زرعها، والقصص التي ربطت بينه وبين عائلته وأصدقائه. أحلامه لا تزال حية، يراها الجميع في كل شجرة، وكل حبة عنب، وكل طبق من الأكلات التراثية يُعد في بيت العائلة.

م يكن يوم وداع جدكم سهلاً على أيٍ من أفراد أسرته، فقد كانت اللحظات ثقيلة على القلوب. وكانت شمس الغروب تعكس في ضوءها الذهبي الحزين شحوب الوجوه وتخفف من وقع الوداع. ولكن وفي تلك اللحظة، كان أبرز من تأثر هو عمتكم زينب، التي كان قلبها أكبر من أن يحمَل فقدًا كهذا. وقفت أمام قبر جدكم، فغمرت عيونها الدموع التي تمزج بين الشوق والحزن العميق، لكنها لم تكن دمعات يأس، بل دموع حب ووفاء.

لقد فقدت هذا الأب الذي كانت تعتبره في حياتها ليس فقط والدًا، بل ركيزة الأمان والدعم الذي لا ينتهي، وتذكّرت ملامح وجهه، وصوته الذي طالما كان ملاذًا يعيد إليها الثقة في أيامها الصعبة. تلمست قلبها وهي تحدق في التراب الذي يلامس جسده الآن. دون أن تُنطق بالكلمات التي تملؤها، توجهت زينب بخطوات بطيئة نحو القبر ووضعت زهرة بيضاء رقيقة عليه.

وفي تلك اللحظة، همست إليها كلمات خافتة، تغسل بداخلها أعمق حزنها وأكبر حبّها: "أبي، لقد كنت دائمًا بطلي، كنت الأمل في حكاياتك وكل لحظة قضاها قلبك بجانبنا. كنت تروي لي قصصك وتعلّمني أن القوة تكمن في العطاء، كنت الأميرة في حكاياتك وستبقين في ذاكرتي إلى الأبد. سأفتقد ابتسامتك، وحبك العميق، وكلماتك التي كانت تجعل العالم بأسره يبدو أفضل بكثير."

رغم البعد والفقد، كانت كلمات زينب قريبة إلى قلبها كأنها لم تفقده أبدًا. لقد أدركت أنه رغم رحيله الجسدي، إلا أن الإرث الذي زرعه والدها في قلبها لن يموت. بل سيبقى عميقًا ورأسياً في وجدانها، مُلهمًا في قراراتها، وفي تعاملاتها، وفي حكاياتها عن جدها الحبيب الذي كان رمزًا للعطاء والتضحية. كان يحب أن يعبر بكل جوارحه عن الوفاء لعائلته، وقد تعلمت منه زينب درسًا بأن حكاياتهم لن تنتهي بموتهم، بل تبقى حيّة بما زرعوه في أجيالهم.

بعد كلماتها تلك، همست لذاتها وهي تتنهد: "أبي، كنت دائمًا توجيهًا لنا نحو الأفضل، وكلماتك ستظل تجوب المسافات الطويلة في عقلي وقلبي. سأكون قوية، لأنك كنت تقبل الحياة بكل مصاعبها، وعلمتني كيف أواجه كل تحدٍ يأتي أمامي كما فعلت أنت."

علمت العمة زينب بداخلها أنه بقدر الألم، ستبقى الذكرى حيّة، وسيمضي الوقت بمرور الأيام، إلا أن الإرث الذي تركه والدها في قلبها وأرواح الجميع سيظل يدفعها للأمام، ويجعلها تُكمل الحياة بنفس القوة التي زرعها في كلماته وفي قلبها.

الفصل الخامس والعشرون

"صديق الجد نعمان وقصة عن إرثٍ خالد"

ذات مساء هادئ، جلس الأب مع أبنائه حول الموقد تنبعث منه حرارة وذكريات دافئة. كان الأب ينظر إلى أبنائه وكأنما يحاول رسم صورة في عقولهم، ثم قال بابتسامة مشوبة بالحزن:

"سأخبركم الليلة بقصة رواها لي صديق جدكم نعمان، رجل ارتبط اسمه بإنسانية لن ننساها، لقد أصرّ ذلك الصديق أن يوصل لي ولأولادي درسًا من أعماق التجربة."

أصلح الأب جلسته وبدأ قائلاً:

"قبل سنوات ليست بطويلة، أخبرني صديق جدكم عن لقاء لا يُنسى جمعه معه، حدثني عن تفاصيل ذلك اليوم وكأنه يسرد مشهدًا سينمائيًا محفورًا في الذاكرة."

أكمل الأب:

"يقول صديق جدكم إنه كان جالسًا جدكم في أمسية عادية لكنها مشبعة بالأحلام. كان جدكم نعمان قد استعد أخيرًا للتقاعد، وقد بدا ذلك وكأنه لحظة ولادة جديدة بالنسبة له.

حدثني عن كيف كان جدكم يحلم برحلة العمر إلى الأندلس. سأله مازحًا: "ما الذي تريده هدية من هناك؟" فأجابه مازحًا هو الآخر: "إن لم تستطع إحضار قصر الزهراء أو غرناطة، فلتكن هديتي الأميرة ولاّدة.' وضحك كلاهما."

ولكن الأب توقف لبرهة ثم تابع بصوتٍ عاطفي:

"بعد ذلك بوقت قصير، وفي اليوم التالي تمامًا، جاء الخبر المفجع. توفي جدكم بسبب نوبة قلبية مفاجئة كما تعلمون. وكأنما الحياة تسير في طريق ثم تقرر أن تتوقف بشكل غير متوقع. صديق جدكم أخبرني أنه حين سمع الخبر، لم يستطع تصديقه. كان يتذكر قبل ساعات قليلة فقط ذلك الحوار الممتع وتلك الخطط المفعمة بالحيوية."

وتابع صديق الجد بعاطفة غامرة:

"كان والدك رمزًا للعطاء والإنجاز. من تعليمه في مدرسة الزاوية، إلى عمله كمفتش مخلص في وزارة المعارف، إلى كتاباته الأدبية المتميزة، كان نموذجًا للإنسان الذي يعيش بأمانة وصدق. حتى بعد رحيله، ظل الطلاب الذين درسهم يشيدون بفضله وتأثيره الكبير."

وتابع: فعلا كان رجلًا من طرازٍ نادر. لم يكن فقط رجلًا عاديًا في قريته ومجتمعه، بل كان مرآة للقيم الأصيلة. كان دائمًا يسعى للسلام والمبادئ العليا. لكنه، لم يكن معزولًا عن مشاعر البشر أو بعيدًا عن تأثيرات الواقع. لقد واجه الخلافات والصراعات بسعة صدر وصبر لم يشهده الكثيرون."

ثم التفت الأب إلى أبنائه قائلاً:

"إن ما يجعل قصته مؤثرة للغاية هو الدرس الذي يتركه وراءه. العمل بإخلاص، ومشاركة الخير مع الناس، وترك أثر إيجابي هو ما يبقى حقًا بعد رحيلنا."

كان جدكم نعمان، الرجل الذي مهما مر الزمن، لن يُمحى أثره من ذاكرة القرية أو من قلوبنا. كان جدكم درّة الزمان، ليس فقط في قريتنا الزاوية، بل في مجتمعنا بأسره. كان يتصرف دائمًا بكل تواضع وإيمان، يتعهد بمساعدة الجميع دون انتظار مقابل. كانت خطواته ثابتة، سابغة على الأرض، وتركت خلفها بصمات من الخير، الكرم، والتفاني في العمل. لم يكن مجرد شخصية مهمة في العائلة، بل كان رمزًا للعدالة والحكمة في كل مكان يذهب إليه.

يستطيع كل من عرفه أن يشهد له كيف كان يتمسك بأعلى القيم الإنسانية: النبل، والإيثار، والصدق. حتى في أصعب اللحظات، كان يجد القوة في نفسه لتوجيه من حوله بطريقة تعزز الوحدة والمودة. لم يكن يعترف بالتفرقة أو الطائفية؛ كان يعتبر الجميع سواسية، ولا تميزهم سوى الأعمال الصالحة. في قريته، كان كل طفل يراه لا يشعر أنه يشاهد مجرد شخص بالغ، بل كان يرى معلمًا يقدم دروسًا بكل خطوة من خطواته.

حتى عندما مرّ بحالات صعبة، سواء في الحياة الشخصية أو في أوقات الأزمات التي مر بها المجتمع بأسره، لم يتوقف عن السير في طريق الصواب. كان يحترم قيمة الصبر وأثره في المجتمع، وكانت أخلاقه تُغني أي حديث يمكن أن يقال عنه. عمله المستمر لخدمة قريته وكل من في مجتمعها، جعله الذاكرة الحية لأي إنسان عاصر تلك الفترات، سواء كان ابنًا أو حتى زائرًا للمكان.

اليوم، بعد سنوات من رحيله، لا يزال اسمه يتردد في كل زاوية من زوايا القرية. تحكي الحكايات عن طيبته، وحكمته، وكيف أن أفعاله كانت تتحدث قبل كلماته. لم تكن قصته مجرد قصة رجل عظيم، بل كانت تجسيدًا حقيقيًا لما يجب أن يكون عليه الإنسان في ظل المحبة والتعاون.

قلبه كان ينبض بالحب للوطن والعائلة، وكان دائمًا يضع مصلحة الآخرين قبل مصلحته. دخل المجتمع من أوسع أبوابه بفضل صفاته العالية، ولم يكن يهتم بمناصب ولا شهرة، بل بما يمكن أن يقدمه من عطاء مخلص للناس. كانت الأيام التي قضاها يعمل ويكافح دائمًا مليئة بالتفاصيل الصغيرة التي تُظهر قلبه النقي وعقله الحاد.

وفي تلك اللحظات، كان يرى الجميع فيه شخصًا يخطو بلا تعب من أجل وحدة الجميع. ومرت الأيام، لكنه ظل في ذاكرة قريتنا وحياة أجدادنا، حفظنا له الفضل والكلمات الطيبة، وأعماله ما زالت تمد جذورها في الأرض التي زرع فيها.، عرفه الجميع بالأخلاق العالية، وكان محل احترام وتقدير من كل من عرفه او حتى سمع عنه. لكن كما تعرفون، كانت هذه مشيئة الله أن يغادرنا يومًا ما. رحيله لم يكن سهلاً، فقد كان في أوقات سابقة أكثر من مجرد شخص عادي. كان رمزًا للعدالة والكرامة، وفي عينيه كانت تلمع الحكايات التي يخفيها وراء ابتسامته الحانية. قدّر الناس حكمته، وحُسن أخلاقه، فهو كان يعلم أنّه مهما علا الإنسان وارتفع مكانه، فإنّ التواضع والمحبة هما ما يرفعانه في قلوب الناس.

"إن قصص أجدادنا ليست مجرد ذكريات عابرة، بل هي إرثٌ حيٌ نحمِله في قلوبنا وننقله من جيل إلى جيل. تعلمنا من هذه القصص أن القوة الحقيقية لا تأتي من المناصب أو الهيمنة، بل من الحكمة والتفاهم، ومن القدرة على الاستماع للآخرين بعقول منفتحة وقلوب متسامحة. فتلك الصفات تبنى بالبناء العادل والمشترك الذي يقوي العلاقات ويساهم في سلام المجتمع.

وفي النهاية، رفع الأب رأسه ونظر إلى أولاده بابتسامة عميقة وقال: "ما تعلمناه من جدكم نعمان هو أن هناك حكمة يمكننا جميعًا الاستفادة منها، وقد فعل ما لم يفعله كثيرون، فقد خدم بلده وعاش برقي وعز. نعلم الآن، أن الإرث الذي تركه لنا ليس فقط في الكتب أو المناصب، بل في قيمه وخلقه وأخلاقه. وكلما مر الزمن، نكاد نشعر بوجوده معنا. تذكروا، أطفالي الأعزاء، إرثنا ليس عبارة

عن أمجاد قديمة فحسب، بل هو نور يستنير في خطواتكم مع كل قرار وكل خطوة نخطوها في حياتنا."

نظروا جميعًا إلى والدهم بتقدير، فزاد إحساسهم بالمسؤولية تجاه ما ورثوه من هذا الرجل الكبير الذي ضحّى بالكثير من أجل الخير والسلام.

الخاتمة

ومع مرور السنوات، بقيت شمس الأجداد مشرقة في سماء العائلة. كل صباح، كان الأطفال ينهضون وهم يحملون في قلوبهم إرثًا كبيرًا، ويعيشون بتلك القيم التي زرعها لهم أجدادهم. كانوا يعملون بجد، ويعطون من وقتهم وحبهم، كما فعل أجدادهم من قبلهم، متوحدين في أسرتهم وقيمهم، يفخرون بماضيهم ويسيرون بثقة نحو المستقبل.

في أحد الأيام، جلس الأب سامي مع أبنائه سمير، دنيا، شام، وصفاء في غرفة المعيشة، وكان الضوء الذهبي للغروب يملأ الغرفة بأشعة دافئة. كانت صور الأجداد معلقة على الجدران، تروي من خلالها كل تلك الحكايات التي عاشها هؤلاء الأبطال الذين بنوا حياة مليئة بالحب والتضحية.

قال سمير بابتسامة مليئة بالفخر: "لقد تعلمت الكثير من حكاياتكم. أجدادنا لم يكونوا فقط جزءًا من ماضينا، بل هم أساس لمستقبلنا، ما جعلني أعي تمامًا معنى الأسرة، الصبر، والتفاني."

وتنهدت دنيا وأعربت عن فخرها قائلة: "اليوم نحن هنا، نواصل مسيرة الأجداد التي بدأت بجدنا يونس، وتجسدت في جدي نعمان. نحن اليوم أبطال الجيل الجديد، وأدعو الله أن يجعلنا نستحق أن نبني من تاريخهم مستقبلًا أجمل."

أما شام، فقد أكدت بنبرة من حب واعتزاز: "مثلما كانوا يستمدون قوتهم من الأرض التي عاشوا عليها، نحن أيضًا نستمد قوتنا من عائلاتنا ونشجع بعضنا على الحلم والمثابرة."

أما صفاء، فبصمتها كانت لسان حالها، ولكن عيونها كانت تحمل كلمات حب واعتراف للذي منحوا كل شيء.

قال سامي وهو يراقب أولاده بكل فخر، ثم ابتسم وأضاف: "الآن، أنتم قد وصلتم إلى المكان الذي أصبحتم فيه أحفادًا يجسدون التقاليد ويخدمون قيم الأجداد، أنتم الضياء الذي سيبقى لا يغيب، ستنيرون طريق الأجيال القادمة."

وفي تلك اللحظة، غمرتهم النعمة والطمأنينة، إذ أدركوا أن الأجداد ليسوا مجرد ذكرى، بل هم بصمة في أفعالهم ومواقفهم في حياتهم اليومية. كانوا مستمرين في التمسك بروح تلك القيم الجميلة، وأصبحوا أنفسهم بطولات حية ترويها أجيال جديدة في كل مرة يجلسون فيها معًا، ليحكوا للآخرين عن شمس الأجداد التي لن تغيب أبدًا.

وبهذه النهاية، أغلقت الحكاية أبوابها على قلب مليء بالحب والعزم، عائشة على نهج الأجداد الذين زرعوا بذور الخير، لتظل شمسهم تشع في كل لحظة، وكأن الزمن لا يغير شيئًا سوى أن النور يستمر.